
عَلَّمَتْنِي المِحَنِ
د. هاني درغام
دار البشير للثقافة والعلوم

عَلَّمَتْنِي المِحَنُ والابتلاءات



اسم الكتاب: علمتني المحن والابتلاءات

التأليف: د. هاني درغام

موضوع الكتاب: فكر ديني

عدد الصفحات: 233 صفحة

عدد الملازم: 21 ملزمة

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 26607 / 2016

الترقيم الدولي: ISBN: 978 - 977 - 278 - 600 - 8

1438 هـ

2017 م

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

Darelbasheer@hotmail.com

Darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01152806533 - 01012355714



عَلَّمَتْنِي
المِحَنُ
د. هاني درغام
دار البشير
للثقافة والعلوم

ومضة أمل

سألني أحد إخواني ممن عاشوا معي تجربة محنتي: لو أخبرك أحد الأشخاص قبل بضعة أعوام وأنت في غمرة محنتك، ووطأة شدتك، وحِدَّة معاناتك أنك بعد بضع سنوات من الآن ستقوم بتأليف كتاب.. ماذا كنت تقول له ؟

قلت له بدون تردد: قطعًا. سأتهم هذا الشخص بالجنون.

الآن، وبعد مرور ثماني سنوات على انقضاء المحنة، وزوال الغمة أصبح لي بفضل الله سبعة كتب!

مشكلة الكثير منا - وأنا واحد منهم - أننا نحبس أنفسنا في زنزانة المحنة، نتصور أنها سرمدية، ونتخيل أن المعاناة ستطول، والألم مستمر، والهم متواصل، فالمنافذ كلها مغلقة فلا يوجد بصيص ضوء، أو بريق أمل!

وننسى - ونحن ندفن أنفسنا في بئر آلامنا وأحزاننا - أن قدر الله - عز وجل - دائمًا يعمل، دائمًا يغير ويبدل، ينشيء من الألم أملًا، ويخرج النور من الظلمات، ويجعل مع العسر يسرًا، وبعد الضيق فرجًا ومخرجًا ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق:1)

إهداء

إلى صاحب هذا الكتاب..

كـم تجرعـت فـي محنتـك مـن كئـوس الابتـلاء والألم!، وكـم غمرتـك الأحزان والهمـوم والأسـى والندم!

وكـم همـس الشـيطان في أذنك بأن هذه الشـدة سـتطول، والمحنة سـتمتد، والهـم سـيتواصل، والألم لـن يرحل، والتعاسـة لن تغادر!

وكـم تخلـى عنـك الأمـل!، وهجـرك التفـاؤل!، وعصفـت بـك الظنـون!، وغـزا قلبـك اليـأس!، واقتحمـه الوهـن!، واسـتولى عليه الإحبـاط، وكم..، وكـم.. مما ضاق بـه صـدرك، ودمعـت بـه عينـك، وغصـت به نفسـك؛ حتـى لم تعـد تطيـق الحياة.

ثـم أذن اللـه - عـز وجـل - وهـو اللطيـف الخبيـر - فـي زوال هـذه الغمـة وحلـول الفـرج، وذهـاب الضيـق، وانكشـاف الكـرب، حتـى بت تشـعر أنك إنسـان آخـر، غيـر الـذي كان يعانـي قبـل بضع سـنوات. إنسـان قـادر على مقاومـة آلامه، ومجاهـدة متاعبـه، ومدافعـة وسـاوس شـيطانه.

حقيقـة، لـم أكـن أتخيـل - يومًـا - أنـي سـأكتب عن المحـن والابتـلاء، بل لم أكـن أتصـور أصـلًا أنـي سـأنجح فـي مواصلـة الكتابة بعد هـذه الشـدة والضراء.

وهـذا الكتـاب - أكتبـه لنفسـي - قبـل أن أكتب لكـم أيها القـراء الأعزاء، لعل هـذه الكلمـات تـداوي مـا تبقـى من علـل وأسـقام، وتحصـن نفسـي إذا نزلت بيّ الشـدائد والآلام، وتمنحنـي قـوة صلـة بالملـك العـلام، وتفتـح لـي بابًـا إلـى الأنس والسـكينة والرضـا علـى مَر الليالـي والأيام.

د. هاني درغام

قصة هذا الكتاب

رفع بصره ذات يوم إلى السماء - وهو في أوج محنته، وذروة عذابه، ومنتهى يأسه قائلًا: لماذا أنا يا رب؟، بل وصل به الحد إلى تمني الموت؛ لعجزه عن مدافعة كثرة الصدمات، واحتمال تتابع الشدائد والأزمات.

لم يكن يدري أن الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، يتقلب فيها المرء بين السراء والضراء، فيشكر في الأولى، ويصبر في الثانية؛ ليحقق وظيفة العبودية!

لم يكن يعلم وقتها أن الملك - عز وجل - يختبر إيمانه، ويمتحن إخلاصه وثباته، ويزكي نفسه ويطهره من أدرانه، ويعدَّه؛ لاكتشاف مسارب نفسه وأغواره (خفاياه)! لم يكن يعرف أن مولاه هو اللطيف الذي يخفي الخير داخل الشر، والعطاء في باطن المنع، واليسر في جوف العسر! لم يكن يخطر بباله - حينها - أن وراء هذه المحنة منحة جليلة، وأن بعد الضيق فرجًا عظيمًا، وبعد الهم والحزن فرحاً وسعادة، وبعد اليأس أملًا وتفاؤلًا!

لم يكن يتصور أنه ستنتهي هذه المحنة يومًا ما، وتذهب آلامها ومعاناتها وأحزانها، وتتحول إلى ذكرى كلما طافت بذهنه أدرك سعة رحمة الله - عز وجل - ولطفه، كما أدرك أيضًا مدى ضعفه وعجزه وقصر نظره!

لـم يكـن يـدرك الحكمة مـن وراء ذلك؛ لأنه كان مسـجونًا فـي زنزانة همومه وكرباتـه، محبوسًـا فـي رحـم معاناتـه! ولكنـه حيـن أدرك طرفًـا مـن سـعة رحمـة مـولاه، وواسـع فضلـه، وعظيـم حكمتـه.. صاح قلبـه: اللهم لـك الحمد كمـا ينبغي لجـلال وجهـك وعظيم سـلطانك.

لـك الحمـد أنـت الـرب الغنـي القـادر العزيـز، وأنـا العبـد الفقيـر العاجـز الذليـل.

لـك الحمـد علـى كل نعمـة أنعمـت بهـا علـيّ منـذ لحظـة الـولادة، وحتـى لحظـة الوفـاة.

اللهـم لا تكلنـي إلـى نفسـي طرفـة عيـن، ودبـر لـي شـئوني كلهـا، فإنـي لا أحسـن التدبيـر لنفسـي.

مقدمة الكتاب

الحمد لله الجليل ثناؤه، الجميل بلاؤه، الجزيل عطاؤه، القاهر سلطانه، الباهر إحسانه، البادية حكمته، الشاملة رحمته، المأمول عطفه، المحذور سطوه. أحمده على ما أسبغ من النعمة، وظاهر من المنّة، وأسبل من الستر، ويسّر من العسر، وقرّب من النجاح، وقدّر من الصلاح، حمدًا يقضي الحق المفروض، ويقتضي المزيد المضمون.

سبحانك ربي. الرغباتُ بك موصولة، والآمال عليك مقصورة، والوجوه لوجهك عانية، والأرواح إليك مَشوقة، والنفوس إلى كهف غيبك مَسوقة، والأماني بك مَنُوطة، والأيدي نحوك مبسوطة، والهمم إلى طلب مرضاتك مرفوعة، وآلاؤك عند جميع الخلق مشهودة ومسموعة.

سبحانه. هو الإله العظيم، والرب الرحيم، والجواد الكريم، والسميع العليم، يملك العالم كله، وما بعده، وما قبله، وله فيه تصاريف القدرة، وخفِيّات الحكمة، ونوافذ الإرادة.

لا يخيب من أمّله، ولا يرد من سأله، ولا يقطع مَن وصله، ولا يبخس من عامله، ولا يسلب من شكره، ولا يخذل مَن نصره، ولا يوحِش من استأنس بذكره، ولا يُسْلم من استسلم لقهره، ولا يكل مَن توكل عليه، ولا يهمل من وثق به والتجأ إليه، ولا يضل من استمسك بكتابه، ولا يذل من لاذ بجنابه.

أما بعد..

في حياة كل واحد منَّا سجلٌّ حافل بالمواقف والأحداث التي تعرض فيها لمحنة خانقة، وبلية شديدة تكاد تعصف شدة أمواجها بجدران إيمانه، وتضعف قوة صلته بربه، وقد يستبد به القلق والاضطراب، أو يستولي عليه اليأس والإحباط، وقد يهمس الشيطان في أذنه بأن المحنة ستطول والكرب ممتد واليأس مستوطن، ويوهمه بأن الله - تعالى - تخلى عنه، وتركه شريدًا طريدًا في صحراء قاحلة تفترسه وساوس الشيطان، فلا يقوى على المواجهة أو المقاومة، فيصبح ساعتها بين أمرين: إما أن يترك نفسه فريسة، لأوهام الشيطان؛ فيتنقل من ضيق إلى هم، ومن يأس إلى اكتئاب، أو قد يثور إيمانه وتنتفض جوارحه، ويهزم شيطانه، ويسارع إلى محراب العبودية يشكو لمولاه ضعفه وعجزه، يبثه شكواه وألمه، يشرح له كل شيء يدور بداخله، وقد يكتفي بآهاته ودموعه؛ لتعبر عن شدة معاناته واستسلامه.

ثم ما هي إلا أوقات - تطول أو تقصر - حتى تتفجر ينابيع الأمل وتشرق أنوار الرجاء، وتزول المحنة، وينكشف الكرب، ويتحول الضيق إلى سعة والعسر إلى يسر، وتكتشف أن ما مررت به من شدة ومحنة، وما تجرعته من مرارة الألم؛ يحمل في طياته الخير الوفير، والنفع العظيم، واللطف الكبير، والحكمة العظيمة، ولكنك حبست نفسك في زنزانة ضيقة من الأوجاع والآلام، ولم تبصر المنن في ثنايا المحن.

- الآن، بعد زوال المحنة اكتشفت أن المنع عطاء، وأن مع العسر يسرًا، وأن لطفه تعالى لم يفارقك لحظة، وأن المحنة قد فجرت طاقاتك وأظهرت قدراتك وغيرت تفكيرك لكل ما حولك، وأن مشاعر الجزع والسخط والأسى، التي انتابتك حينها تحولت إلى رضا وسعادة وامتنان، وفتحت لك بابًا لتذوق حلاوة الإيمان وحسن الظن بالله - عز وجل - صاحب الجود والإحسان!
- الآن، فقط، أصبحت ترى الدنيا على حقيقتها، دار ابتلاء وامتحان لابد فيها من المنغصات والمكدرات والمزعجات والمقلقات؛ لتختبر إيمانك، ويشتد عودك؛ فتصبح أكثر زهدًا فيها وانصرافًا عن زينتها وزخارفها!
- الآن، فقط، أصبحت ترى الآخرة هي الحياة الحقيقية التي ينبغي أن تُصرف لها كل الجهود والطاقات، وتُبذل في سبيل الفوز فيها كل الأموال والأوقات، وأن تتحمل من أجلها كل الصعوبات والمشقات!
- الآن، فقط، أصبحت ترى نفسك عبدًا مملوكًا لله - عز وجل - يفعل به ما يشاء، لا يحق لك الجزع أو الاعتراض، وكيف تجزع!، وقد جربت جميع اختياراته من قبل فوجدت فيها الخير والأمان، ولكنك فقدت نظارتك الإيمانية التي تمنحك رؤية ألطافه ورحماته!

- الآن، فقط، أدركت أن المحن والابتلاءات لا تأتي لتعذبك، ولكن؛ لتهذبك وتطهر قلبك من آفاته، وتسمو بروحك، وتعلمك درسًا لن تنساه، وهو أن ضعفك سر قوتك، وذلّك مفتاح عزتك، وقربك من مولاك؛ هو سبيل سعادتك، وأن إيمانك هو العاصم لك من شيطانك، وأنه في غياب الإيمان أو ضعفه؛ تصبح نظرة الإنسان للحياة سوداء قاتمة، لا تعدو كونَها أحزانًا ومصائبَ وفقرًا وأمراضًا وبلايا، فهو ينتظر المصيبة، ويتوقع البلوى، ويترصد الفاجعة.

أخي القارئ،

لقد مررت بمحنة شديدة استمرت بضع سنوات عشت خلالها بين اليأس والأمل، والقلق والاطمئنان، والتفاؤل والتشاؤم، والرضا والجزع. انتصرت على الشيطان في جولات وهزمني في أخرى. أيقنت تارة أن التضرع والدعاء هما السبيل للفرج والنجاة، وأقنعني الشيطان بعدم جدوى الدعاء تارة أخرى.

تذوقت لذة القرب وحلاوة الأنس تارة، وتجرعت مرارة الوحشة والحرمان تارة أخرى، خسرت أشياء كثيرة في حياتي، ثم عوضني الله - عز وجل - بخير منها.

تعلمت من محنتي أن الألم الحقيقي هو ألم البعد عن الله - تعالى -، الملاذ الآمن في الشدة، والأنيس في الوحدة والغربة. فإذا فقدته، فكيف تتحمل العيش في هذه الحياة المليئة بالحفر والأشواك والمطبات والعقبات؟!

وتعلمت منها، أن أصعب أنواع المجاهدة، مجاهدة النفس. ألا تفقد الأمل رغم اشتداد المحن وتتابع الأزمات، وتعاقب الشدائد، وتكاثف سحب اليأس، وتأخر الفرج ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:69)

وتعلمت منها، أن المرء لابد أن يفتش في دفتر ذكرياته عن هذه اللحظات التي تألم فيها كثيرًا؛ ليتأمل كيف أحاطت به نسمات الرحمة والكرم الإلهي؛ فأخرجته من زنزانة المحنة إلى واحة الأمل؛ لأنه - يومًا ما - ستتحول تجربتك الأليمة إلى ذكريات كلما مرت صورتها بذهنك تذكرت كم كانت غنية وثرية هذه التجربة بالدروس والخبرات!، وكم كانت تحوطها الألطاف الإلهية والرحمات الربانية!، وحينها ستردد: يا لها من تجربة عظيمة - رغم آلامها - فقد صنعت مني شخصًا آخر قادرًا على مواجهة التحديات والأزمات بشكل أفضل!

لقد عشت طويلًا في زنزانة المحنة، أجتر آلامي وأتقلب على فراش معاناتي لا أبصر أملًا، ولا أتوقع فرجًا، قبل أن تتداركني الرحمة الإلهية، واللطف الرباني.

لقد كنت دومًا أخاطب نفسي: ويحك يا نفس!

أتظنين أن الملك - عز وجل - يترككِ فريسة لآلامك وأحزانك وهمومك، وأنتِ تتذلّلين على أعتابه وتنكسرين في محرابه!

أتظنين أنه - سبحانه - لا يعلم مدى عجزك وفقرك وضعفك؟!

أو كلما طالت المحنة وزادت الشدة وتأخر الفرج، لوَّن اليأس قلبك واستسلمت؛ لوساوس شيطانك؟!

ألم يخبرك - سبحانه - في كتابه أنها دار امتحان واختبار؟

أتظنيـن أن هـذه المحنـة سـرمدية لـن تـزول ولـن تتحـول عنك، ألـم تزدهر حياتـك قبـل هـذه المحنـة بالرخـاء والعافية والسـكينة؟

الآن، بعـد أن تحولـت المحنـة إلـى ذكريـات، وزالـت الآلام والصعوبـات، عـدت مـرة أخـرى لهـذه الفتـرة العصيبـة من حياتـي أتأمل فيهـا، وأبحث عن أهم مـا تعلمته منهـا مـن خـلال مشـاهدات المحنة نفسـها، أو من خـلال تدبري لآيات فـي كتاب ربي كانـت تتنـزل علـى قلبـي بـردًا وسـلامًا، أو مـن خـلال خلاصـة جهد مـا كتب السـابقون واللاحقـون مـن حكـم وخبـرات وتجـارب[1]، أو مـن خـلال مـا تعلمتـه مـن قراءة سـير الصالحيـن ومتابعـة أحوالهـم.. فجمعـت مـا دونتـه مـن ملاحظـات، وأضفـت عليـه ما قرأتـه فـي بطـون الكتـب مـن عصـارة خبرات، فـكان هـذا الكتـاب الذي بيـن يديك.

أسـأل اللـه - تعالـى - أن يتقبـل منـي هـذا الكتـاب، ويجعلـه عونًا لكل مـن أرهقته الشـدائد، وطالـت بـه الكربـات، وعصفت بـه المحن؛ عله يجـد فيه ما يخفـف عنه آلامه، ويؤنـس وحدتـه ووحشـته، ويقـوي صلته بربـه، ويعيد شـحنات الأمل إلى قلبـه، ويمنحه مناعـة ضد الجزع والسـخط واليـأس والقنوط.

---

(1) من أكثر الكتب التي اصطحبتها في فترة الابتلاء كتاب(الحكم العطائية شرح وتحليل – للبوطي)، وكتاب (في ظلال القرآن - سيد قطب). وقد وجدت فيهما بلسمًا شافيًا لكثير من الآلام المضنية، وجوابًا كافيًا لكثير من التساؤلات الحائرة، ولعلك أخي القارئ تجد أنهما من أكثر الكتب التي نقلت عنهما في كتابي هذا.



لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسنُ عَمَلًا

(إن شعور الإنسان بأنه مبتلى وممتحن بأيامه التي يقضيها على الأرض، وبكل شيء يملكه، وبكل متاع يتاح له، يمنحه مناعة ضد الاغترار والانخداع والغفلة، ويعطيه وقاية من الاستغراق في متاع الحياة الدنيا، ومن التكالب على هذا المتاع الذي هو مسؤول عنه وممتحن فيه)[1]

(سيد قطب)

---

(1) في ظلال القرآن ج 1770/3

خلق الإنسان بين العبادة والابتلاء:

قضت مشيئة اللـه - تعالـى - وحكمتـه أن يخلـق الإنسـان ويسـتخلفه فـي الأرض؛ مـن أجـل غايـة محددة، ووظيفة أساسـية، وهـي عبادته ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:56).

والعبـادة هـي الإذعـان الكلـي والخضوع الكامـل والطاعة المطلقـة لله - عز وجـل - عبـر الالتزام بما شـرعه سـبحانه، أمـرًا ونهيًا، تحليـلًا وتحريمًا.

وهـذه العبـادة تنبثـق مـن شـعور الإنسـان بعبوديتـه ومملوكيتـه للـه - عـز وجـل -، ذلـك أن فـي فطـرة الإنسـان حاجـة ملحـة، ورغبـة دائمـة فـي الانكسـار والتذلـل والافتقـار لخالقـه ومولاه، وهذا الشـعور هـو الذي يدفعه للمسـارعة إلى مرضاتـه، وتجنـب سـخطه، وإيثـار طاعتـه، وابتغـاء قربـه، واتبـاع هداه.

هـذا الشـعور الفطـري يحتـاج إلـى منـاخ مناسـب ووسـط ملائـم؛ ليترجـم مشـاعر عبوديتـه ويفصـح عـن صفـاء هويتـه. هـذا المنـاخ هـو الابتـلاء.

لـذا كان لابـد للإنسـان أن يمر بسلسـلة متتاليـة من الامتحانـات والاختبارات يـرى مـن خلالهـا قدرتـه علـى النجـاح أو الفشـل فـي اختبـار العبوديـة، فيترجـم عبوديتـه إلـى ممارسـة عمليـة عبر الصبر في الشـدة والضراء، والشـكر فـي الرخاء والسراء.

وهـذا مـا كشـف عنه البيـان القرآني بوضـوح وجلاء، في قولـه تعالى: ﴿وَهُـوَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِـي سِـتَّةِ أَيَّـامٍ وَكَانَ عَرْشُـهُ عَلَى الْمَـاء لِيَبْلُوَكُـمْ أَيُّكُمْ أَحْسَـنُ عَمَلاً ﴾ (هـود: 7)، وقولـه سـبحانه: ﴿إِنَّـا جَعَلْنَـا مَـا عَلَـى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَـا لِنَبْلُوَهُـمْ أَيُّهُمْ أَحْسَـنُ عَمَلًا ﴾ (الكهف:7)، وقولـه أيضًـا: ﴿تَبَـارَكَ الَّـذِي بِيَـدِهِ الْمُلْـكُ وَهُـوَ عَلَـى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيـرٌ {67/1} الَّـذِي خَلَـقَ الْمَـوْتَ وَالْحَيَـاةَ لِيَبْلُوَكُـمْ أَيُّكُمْ أَحْسَـنُ عَمَـلًا وَهُـوَ الْعَزِيزُ الْغَفُـورُ ﴾ (الملك 1 - 2). فبيَّنت الآيـات السـابقة حكمـة الخلـق وغاية العبـادة ﴿ لِيَبْلُوَكُـمْ أَيُّكُمْ أَحْسَـنُ عَمَلًا ﴾[1] وأحسـن عملًا تعنـي الاسـتثمار الأمثـل والاسـتخدام الأفضـل لمـا وهبه اللـه - عز وجل - للإنسـان مـن مواهـب وملـكات وطاقـات، وبمـا سـخره له من زينـة ومشـتهيات، بمـا يحقق على أرض الواقـع العمـل الأحسـن، والكلمـة الأحسـن، والخُلقُ الأحسـن، والفكر الأحسـن.

ويقال: أحسن الأعمال ما كان صاحبه أشدّ إخلاصًا فيه.

ويقال: أحسنهم عملًا أبعدهم عن ملاحظة أعماله.

ويقال: أحسن الأعمال ما ينظر إليه صاحبه بعين الاستصغار.

ويقال: أحسن الأعمال ما لا يطلب صاحبه عليه عوضًا) [2]

---

(1) ذكر أبو السعود - رحمه الله - في تفسيره: (وحسن العمل: الزهد فيها (أي: الدنيا)، وعدم الاكتراث بها، والقناعة باليسير منها، وصرفها على ما ينبغي، والتأمل في شأنها، وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها، والتمتع بها حسبما أذن الشرع، وأداء حقوقها، والشكر على نعمها، لا جعلها وسيلة إلى الشهوات والأغراض الفاسدة، كما يفعله الكفرة وأهل الأهواء). (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ج5 /205)

(2) لطائف الإشارات، ج 4 / 50 - الإمام القشيري

الشهوات مادة الابتلاء:

ذلك أن مادة الابتلاء التي يُمتحن فيها الناس، هي زينة الأرض وشهواتها كما أخبرنا سبحانه في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (آل عمران:14)

إن هذه الشهوات حين تنضبط فى حدودها التى حددها الله، تصبح غذاءً صالحًا مفيدًا للنفس، ولا تعود سمًّا مهلكًا، ولا همًّا مقعدًا مقيمًا، لا يرتوي ولا يشبع، ولا يدع للنفس فرصة للسكينة والهدوء، ذلك أن النفس إذا اتبعت إغراء هذه الشهوات - وهي لكونها محببة ومزينة تغري بالمزيد– فإنها تستثقل التكاليف، وتشق عليها العبادات، وتضعف عن أداء الطاعات، فهي ترى في الالتزام بما شرعه الله مانعًا يعوقها عن تحقيق أكبر قدر من الشهوات، تتوهم فيه مزيدًا من السعادة والراحة.

إن الإنسان مضطر في هذه الحياة أن يتحمل مكابدة الشدائد والمشقات، ومدافعة الأهواء والشهوات، وتجاوز الحفر والأشواك والعقبات. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ (البلد:4)، فهو يقاسي ويعاني في رحلة البحث عن الشهوات والظفر بها، كما يعاني أيضًا عند الحرمان منها وفوات تحصيلها، وفي رحلة معاناته تلك يتقلب بين المنع والعطاء، الضيق والسعة، فيصبر في الأولى، ويشكر في الثانية، وبذلك تتحقق عبوديته، وينجح في اختبار العبودية والاستسلام لله.

وإدراك العبـد لهـذه الحقيقـة– أعنـي أن الشـهوات هـي المـادة الامتحانيـة التـي شـاء اللـه أن يبتلـي بها عبـاده - وما يترتـب على ذلك الامتحان من مسـئولية وجـزاء؛ هـو الـذي يصونه عـن الاغترار بها والركـون إليها، حتى يكـون أهلًا للدخول فـي رضـوان الله والفـوز بجنته.

ولعلـك تسـأل لمـاذا ابتلـى اللـه - تعالـى - عبـاده بمحبـة الشـهوات والميل إليهـا، رغـم أنهـا قـد تصـرف أكثر النـاس عـن سـبيل الإيمان!؟

الجواب كما ذكر د. محمد البوطي - رحمه الله - في حكمتين رائعتين:

(الحكمـة الأولـى: إن النـوازع الروحانيـة السـامية في حياة الإنسـان، تشـكِّل أحـد جناحيـه فقـط فـي سـلم الرقـي إلـى مرضـاة اللـه - تعالـى -، أمـا جناحـه الثانـي فهـو غرائـزه وشـهواته الحيوانيـة، فهو بهما معًـا يرقى ويرتفـع، وينهض إلى مسـتوى التكريـم الذي رشـحه الله - تعالـى - لبلوغ مرتبته.. وإنمـا تتحول الغريزة الحيوانيـة فـي حياة الإنسـان إلى سـلاح بيـد الشـيطان؛ عندما تتجاوز حـد التوازن مـع نـوازع الفطـرة وأشـواق الـروح. وكمـا يتـاح للإنسـان أن يتسـبب فـي طغيـان الغريـزة الشـهوانية فـي كيانـه، يتـاح لـه بالقـدرة - ذاتها - أن يتسـبب فـي ضبطها وإعادتهـا إلـى الحـد السـليم.وإذا كان الشـيطان هـو الـذي يغـري الإنسـان بـأن يذهـب فـي الاسـتجابة لشـهواته إلـى حـدّ الطغيـان، فإن اللـه هو الـذي يعينه في لجمهـا وإيقافهـا عنـد حدودهـا المشـروعة، وإنمـا يتوقـف الأمر على أن يسـتنجد باللـه - تعالـى - ليعينـه فـي لجمهـا، كمـا استسـلم مـن قبـل للشـيطان؛ ليسـلطها بطغيانهـا عليه.

الحكمة الثانية: أن من لطف الله - تعالى - بعبده أن يذكره دائمًا بضعفه وعجزه؛ ليقوده ذلك إلى التوجه إلى ربه، يسأله ليعطيه، ويستنجد به لينجده، ويستعين به ليعينه.

ومن مظاهر ضعف الإنسان، تسلط غرائزه الشهوانية عليه، في كثير من الظروف والحالات، بحيث تختفي أمامها كوابحه العقلية وتشلّ قدراته الإرادية. فشأن المؤمن بالله - تعالى -، إذا تنبه إلى ضعفه هذا، ورأى خطر طغيان الشهوات كيف يدنو إليه ويحدق به، وأدرك عجزه عن لجمه ومقاومته، أن يفرَّ إلى الله - جل جلاله - يستنجد به ويلجأ إليه، ويدعوه أن يردَّ عنه غائلة (فساد وشر) أهوائه وجموح رغائبه. وشأن الله - عز وجل - أن ينجده فيما استنجد به من أجله، وأن يدخله في كلاءته وحرزه، وأن يستجيب دعاءه فيقيه من شر شهواته وأهوائه)[1]

وما أجمل ما ذكره الإمام ابن القيم - رحمه الله -: (ليس العجب من قلب خالٍ عن الشهوات والإرادات، قد ماتت دواعي طبعه وشهوته، إذا عكف على محبوبه ومعبوده واطمأن إليه واجتمعت همته، وإنما العجب من قلب قد ابتلي بما ابتلي به من الهوى والشهوة ودواعي الطبيعة، مع قوة سلطانها وغلبتها، وضعفه وكثرة الجيوش التي تغير على قلبه كل وقت؛ إذا آثر ربه ومرضاته على هواه وشهوته ودواعي طبعه، فهو هارب إلى ربه من بين تلك الجيوش، وعاكف عليه فى تلك الزعازع (الرياح الشديدة)

(1) الحكم العطائية شرح وتحليل ج3 /535 - 536 بتصرف.

والأَهوية (جمع هواء)، التي تغشى على الأسماع والأبصار والأفئدة، يتحمل منه؛ لأجل محبوبه ما لا تتحمله الجبال الراسيات) [1]

وهكذا كان لزامًا على الإنسان للوصول إلى الأحسن في العمل والارتقاء في درجات الطاعة وميادين الخيرات؛ أن يواجه صراعًا بين أشواق روحه، التي تتوق إلى الارتقاء في منازل الإيمان ومدارج التقوى، وبين نزعات جسده التي تشده إلى الأرض بسلاسل الشهوات وجواذب المغريات.

حكمة الابتلاء: يمكن فهم حكمة الابتلاء وفلسفته، من خلال إدراك حقيقتين هامتين:

1 - الدنيا دار تكليف:

لما كان الابتلاء هو المظهر العملي للعبودية يُختبر المرء من خلاله؛ لتحقيق العمل الأحسن، اقتضى ذلك بالضرورة أن تكون الحياة الدنيا قاعة امتحان كبرى، يُمتحن فيها المرء بالسراء والضراء، والشدة والرخاء، ويتقلب فيها بين اللذائذ والآلام، والمنح والمحن، والقوة والضعف، والسعادة والشقاوة، والعوز والرفاهية، والنجاح والفشل، حتى ينجح العبد في غرس شجرة العبودية، وقطف ثمارها العذبة الشهية في الدنيا قبل الآخرة.

فإذا كانت الحياة الدنيا نعيمًا مقيمًا صافيًا عن المنغصات، خاليةً من الشوائب والأكدار، لا مكان فيها للألم والحزن، والهم والتعب، والمشقة

(1) تقريب طريق الهجرتين للإمام ابن القيم – إعداد الشيخ صالح الشامي ص 629 - 630

والضيق؛ فكيف يمارس العبد عبوديته وسط مناخ لا يستشعر فيه فقره وضعفه وعجزه!، ولا يجد فيه ما يلجئه إلى التذلل والانكسار؟ كيف يرتقي في مدارج الإيمان ومراتب الإحسان، ويتذوق حلاوة الإيمان!؟

2 - الآخرة دار حساب وجزاء:

إن علاقة الإنسان بالحياة الآخرة هي علاقة مسئولية وجزاء، فإذا انتهت مدة الحياة المقررة لابتلاء الإنسان واختباره؛ طُويت قاعة الامتحان (أي: الأرض) وحل محلها عالم الآخرة؛ حيث المستقر النهائي لرحلة الإنسان، وفرز نتائج الابتلاء، وتقسيم الناس إلى سعداء وأشقياء.. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ {11/106} خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (هود 106 - 107).

والموت هو البوابة التي يعبر منها الناس من حياتهم الدنيا إلى الحياة البرزخية، التي هي مقدمة لحياتهم الآخرة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت:57)

فالموت هو النهاية الحتمية التي تقطع آمال المتعلقين بزخارفها، وتنسف طموحاتهم الوهمية في نيل خلود في هذه الدار. لذا كان من الحكمة ألا تكون حياتنا الدنيا - وهي بمثابة معبر إلى الآخرة - مليئة بالنعم والمتع والملاذ الصافية من الآلام والمنغصات، بل لابد أن تكون محشوة بالمزعجات والكدورات، حافلة بالمتاعب والمقلقات حتى لا ينخدع الناس بها، وينسون أنها استراحة في طريق مسافر، متاعها زائل، ولذاتها وقتية، فتتعلق قلوبهم بالآخرة، فلا يأسون على ما فاتهم من

الرغائب أو أصابهم من المصائب، ولا يبالغون في الفرحة بما يتحقق لهم من الشهوات والأهواء، فتتجه طموحاتهم وآمالهم إلى الحياة الآخرة، وما أعده الله - تعالى - فيها لعباده الصالحين من ألوان النعيم الذي لا حدّ ولا نهاية له. فما أرحم ربنا وما أرأفه - سبحانه - بنا؛ حيث جعل كل ما في هذه الحياة من مصائب وآلام وشدائد تذكرةً لنا بحقيقة الحياة الدنيا وطبيعة مهمتنا فيها؛ حتى يرتقي العبد عبْرَ هذه الشدائد في مدارج السمو والكمال. ولله در القائل في التحذير من الاغترار بالدنيا والترغيب في نعيم الآخرة:

صَفَاؤُهَا كَدَرٌ سُرُورُهَا ضَرَرٌ ... أَمَانُهَا غَرَرٌ أَنْوَارُهَا ظُلَمُ

شَبَابُهَا هَرَمٌ رَاحَاتُهَا سَقَمٌ ... لَذَّاتِها نَدَمٌ وُجْدَانُهَا عَدَمُ

فَخَلِّ عَنْهَا وَلا تَرْكَنْ لِزَهْرَتِهَا ... فَإِنَّهَا نِعَمٌ فِي طَيِّهَا نِقَمُ

وَاعْمَلْ لِدَارِ نَعِيمٍ لا نَفَادَ لَهَا ... وَلا يُخَافُ بِهَا مَوْتٌ وَلا هَرَمُ

من ثمرات الابتلاء:

إن مادة الابتلاء في هذه الحياة الدنيا هي زينة الأرض وشهواتها، وهي إما أن تكون سبيل سمو وارتقاء أو هبوط وانتكاس، وبحسب الاستثمار الأمثل لها تصل إلى العمل الأحسن في كافة ميادين الطاعات، فترتقي في مدارج العبودية ومنازل التزكية.



وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً

(اللحظة التي تدرك فيها أن السراء والضراء، واللذائذ والآلام، والشدة والرخاء لها دورٌ هامٌّ في التعبير عن إخلاص عبوديتك وصدق دعاوى محبتك عبر تقوية جناحي الصبر والشكر؛ لحظة فارقة في ولادة إيمانك ونيل سعادتك).

الإنسان بين السراء والضراء:

قال الله - عز وجل -: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:35) [1] من سنن الله - تعالى - في عباده أن تكون الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان، تتمازج فيها مظاهر الشدة والرخاء، وتتجاور فيها المصائب والنعم، ويتقلب المرء فيها بين اليسر والعسر، والغنى والفقر، والصحة والمرض. وذلك من أجل أن يحقق العبد العبودية الخالصة لله بالسلوك والاختيار، كما قد قضى الله - عز وجل - عليه بالعبودية له بالخلق والاضطرار، وذلك عبر تحقيق الصبر في الضراء، والشكر في السراء، وبذلك يستكمل العبد تشييد بنيان الإيمان، ويرتقي في درجاته بما يحميه من الهزة النفسية في لحظات الشدائد، ويبعد عنه مطارق الغفلة في لحظات الرخاء.

وإلى ذلك أشار النبي - عليه الصلاة والسلام - في قوله: (عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)[2]، ولكن أكثر الناس عندما تحدثه عن الابتلاء يحصره في نطاق الشدائد

(1) قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في معنى هذه الآية:(نبتليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال) (تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج342/5)

(2) رواه مسلم (2999)

والصعـاب والآلام والمتاعـب فقـط، غافليـن - أو متغافليـن - عـن أن اغـداق النعـم وكثـرة الأمـوال ووفـرة المتـع وطـول العافيـة؛ ابتـلاء أيضًـا!

ابتـلاء أصعـب وأشـق مـن ابتـلاء الشـدة والضـراء؛ فالمـرء فـي الضـراء يتجه بـكل كيانـه وقلبـه وجوارحـه إلـى مـولاه، فـلا ملجـأ لـه إلا إليـه ولا مفـزع إلا لـه، ولا صبـر علـى الألـم والمتاعـب إلا بتوفيقـه ومعونتـه، أما في السـراء فـإن النعمة تغـر صاحبهـا وتسـكره نشـوتها، فتهجـم عليـه قـوارض الغفلـة وتدفعه إلـى البطر والاستعلاء!

وهذا ما يؤكده الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - فيقول:

(إن كثيريـن يصمـدون للابتـلاء بالشـر، ولكـن القلـة القليلـة هـي التـي تصمـد للابتـلاء بالخيـر. كثيـرون يصبـرون علـى الابتـلاء بالمـرض والضعـف، ولكن قليليـن هـم الذيـن يصبـرون علـى الابتـلاء بالصحـة والقـدرة، ويكبحـون جمـاح القـوة الهائجـة فـي كيانهـم الجامحـة فـي أوصالهـم. كثيـرون يصبرون علـى الفقر والحرمـان فـلا تتهـاوى نفوسـهم ولا تـذل، ولكـن قليليـن هـم الذيـن يصبـرون علـى الثـراء والوجـدان، ومـا يغريـان بـه مـن متـاع، ومـا يثيرانـه مـن شـهوات وأطمـاع!. كثيـرون يصبـرون علـى التعذيـب والإيـذاء فـلا يخيفهـم، ويصبـرون علـى التهديـد والوعيـد فـلا يرهبهـم، ولكـن قليليـن هـم الذيـن يصبـرون علـى الإغـراء بالرغائـب والمناصـب والمتـاع والثـراء!. إن الابتـلاء بالشـدة قـد يثيـر الكبريـاء، ويسـتحث المقاومـة ويجنـد الأعصـاب، فتكـون القـوى كلهـا معبـأة؛

لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيرخي الأعصاب، وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة!) [1]

فالقيام بعبودية الشكر في أوقات السراء يحتاج إلى رصيد كبير من الصبر؛ لمقاومة نوازع النفس وفطمها عن التعلق بالشهوات والاغترار بها. ومن ثم، استخدام النعم فيما يحب الله ويرضى وفق منهجه الذي رسمه لعباده، وعدم استعمالها فيما يجلب سخطه ونقمته.

وأضرب لك مثالاً يوضح هذه الحقيقة: (إن الفقير الذي لم يكن له في فقره اختيار، ليس أمامه لمعالجة ذلك إلا سبيل الصبر، شاء ذلك أو لم يشأ، أما الغني الذي يملك بغناه مفاتيح الشهوات والملاذ المختلفة التي يدري طعمها ويعلم مدى ما تهفو نفسه إليها، ثم يستعلي فوقها ولا يتلقف منها إلا ذلك النذر اليسير الذي يخضع للشروط والقيود الشرعية التي وصفها الله - عز وجل - ؛ فإن له من فضيلة هذا السلوك الاختياري ما يجعله في مرتبة أسمى من ذلك الفقير الذي لم يكن له في فقره أي اختيار.

من أجل هذا؛ أجمع جمهور العلماء على أن الغني الشاكر أفضل عند الله - تعالى - من الفقير الصابر، إذ الحقيقة أن كلاهما صابر، ولكن أحدهما صابر عن شيء يملك أن يناله ويستمتع به، والثاني صابر عما لا يملك سبيلًا للحصول عليه)[2]

---

(1) في ظلال القرآن ج2377/4 - 2378

(2) الإنسان وعدالة الله في الأرض ص 16 - د. محمد البوطي

وهـل يتصـور المـرء أن الشـيطان سـيتركه يجتـاز اختبـار النعمـة بسـهولة دون أن يـزرع فـي طريقـه أشـواك الغفلـة؛ ليصده عن الشـكر، ويشـغله بنشـوة النعم عـن رؤية المنعـم سـبحانه، فتنزلـق قدمـه في متاهـات الكبـر والعجـب والغرور؟!

ألـم يحدد الشـيطان هدفـه الرئيس من الإغـواء والإضلال، وهو صـرف العباد عن الشـكر ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: 17)

العطاء والمنع بين التكريم والإهانة:

وقـد نتـج عـن هـذا الفهـم الخاطـىء لعلاقـة الإنسـان بالابتـلاء إلـى تصـور كثير من النـاس أن بسـط العطـاء والتوسـعة فـي الـرزق بكافة صـوره وألوانـه؛ دليلٌ على اسـتحقاق الكرامـة وعلامـة علـى الاصطفـاء والقـرب، بينمـا منـع العطـاء والتضييـق فـي الـرزق دليل السـخط والمهانـة والإهمـال!. وهـذا تصـور سـقيم وجهـل فاضـح، نشـأ عـن الخلـط بيـن الامتحـان ونتيجـة الامتحـان. فالعطـاء والمنـع كلاهمـا امتحـان مـن اللـه - عـز وجـل -، ونتيجـة الامتحـان تتوقـف علـى سـلوك المـرء الاختيـاري بالصبـر أو الجـزع فـي المنـع، والشـكر أو الكفـران فـي العطـاء.

قـال اللـه تعالـى: ﴿فَأَمَّـا الْإِنسَـانُ إِذَا مَـا ابْتَـلَاهُ رَبُّـهُ فَأَكْرَمَـهُ وَنَعَّمَـهُ فَيَقُـولُ رَبِّـي أَكْرَمَـنِ {89/15} وَأَمَّـا إِذَا مَـا ابْتَـلَاهُ فَقَـدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُـولُ رَبِّي أَهَانَـنِ {89/16} كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُـونَ الْيَتِيـمَ {89/17} وَلَا تَحَاضُّـونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْـكِينِ {89/18} وَتَأْكُلُـونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّـا {89/19} وَتُحِبُّـونَ الْمَـالَ حُبًّـا جَمًّـا ﴾ (الفجر15 - 20)

فيا لبؤس المرء الذي يظن أنه إذا امتلك السيارة الفارهة أو الفيلا الأنيقة أو الأموال الكثيرة أو الوظيفة المرموقة، يكون قد نال من الله - تعالى - الرضا والقبول، غافلًا عن أن قيمة العبد عند الله لا تتعلق بما عنده من عرض الدنيا وشهواتها، ورضَا الله أو سخطه لا يستدل عليه بالعطاء والمنع في هذه الأرض، فهو يعطي الصالح والطالح، ويمنع الصالح والطالح، ولكن ما وراء هذا وذلك، هو الذي عليه المعول، إنه يعطي؛ ليبتلي ويمنع، والمعول عليه هو نتيجة الابتلاء!

ولقد نجح سليمان - عليه السلام - في اختبار السراء عندما تكاثرت عليه نعم الله - تعالى - وفاضت منحه وعطاءاته بما لم يعط لأحد من قبله ولا من بعده، فهتف من أعماقه في ضراعة وخشوع: ﴿هَـذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل:40)، بينما فشل قارون عندما اغتر بكنوزه وثرواته، وظن استحقاقه لها بعلمه وجهده وحسن تدبيره، فقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾ (القصص: 78) .[1]

ولهذا؛ فلا بدّ للإنسان من اعتبار النعمة اختبارًا وامتحانًا، لا كرامةً وامتيازًا.

---

(1) لنا عودة مع نموذج سليمان - عليه السلام - (الشاكر)، ونموذج قارون (الجاحد) عند الحديث عن الشكر تحت عنوان ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾

من أسرار الابتلاء بالضراء:

قال الله - عز وجل -: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ {2/155} الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ {2/156} أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة 155 - 157) [1].

ففي هذه الآية، ذكر الله - تعالى - صورًا من الشدائد والمصاعب التي يبتلي بها عباده؛ ليوطنوا أنفسهم على مواجهتها بإيمان راسخ وإرادة قوية وعزيمة فتية، فهذه المصائب لم تأت لتعذبهم؛ وإنما تهذبهم، لتصفو نفوسهم، وتتطهّر من الأدران أرواحهم، ويعتادوا مقاومة الصّعاب وتحمّل الصّدمات بما يمنحهم مناعة قوية تستطيع أداء واجبات العبودية، ومواجهة كل ما يعوقهم عنها من عقبات بصبر وشجاعة وثبات يدفعهم للتضحية بأنفسهم في سبيل انتصار الإيمان واستعلاء العقيدة.

(وأول تلك الابتلاءات (الخوف)، وإنما بدأ القرآن به؛ لأنه غريزة

---

(1) قال الشيخ السعدي - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ﴾، وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق، وضياع، وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة، وقطاع الطريق وغير ذلك. ﴿وَالأنفُسِ﴾ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر ببرد، أو حرق، أو آفة سماوية، من جراد ونحوه) (ج180/1)

مستقرة فى النفس، لاصقة بالفؤاد، تولد مع المرء منذ ولد، وتتحرك لأدنى مؤثر، وتتولد عنها الأوهام والخرافات، فإذا استطاع الإنسان أن يكبح جماحها، وألا يتأثر بمثيراتها خمدت وسكنت، وذهب من نفسه ما تولد عنها من الجبن والوهم والخرافة، وصار شجاعًا قويّ النفس بعد أن كان رعديدًا خائر العزيمة، وبذلك يحسن استعداده النفسي، وتكون الصدمات التي تلي هذه الصدمة أقل منها أثرًا وأضعف خطرًا، يلي ذلك: (الجوع) وإنما ثنّى به القرآن الكريم، لأنه ألم الجسم، فإذا تعوّد الإنسان مقاومة دواعيه، والصبر على حرارته، فقد قوي جسمه، وصلب عوده، وانضمت قوة جسمه بمقاومة الجوع إلى قوة روحه بمقاومة الخوف، فكان إنسانًا كاملًا جسمًا وروحًا.

(وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ)، وهو الصبر على مفارقة المألوفات من مظاهر البيئة القريبة إلى الشخص، الحبيبة إلى النفس، وللألفة على القلب سلطان، ولها فى النفس منزلة، هذه المألوفات التى تعوق الإنسان عن العظائم، وتحول بينه وبين الجد فى المطالب يريد القرآن أن يعوّد الأمة الصبر على مفارقتها، وعدم الركون إليها؛ حتى يتحرّر الإنسان حرية كاملة؛ وحتى لا يقف شيء دون وصوله إلى الغاية) [1].

لذا كان موقف المؤمنين الصادقين إزاء هذه الابتلاءات هو الصبر عبر تذكر عبوديتهم، ومملوكيتهم لله - عز وجل -، فيهتفون في رضا وتسليم: ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾.

(1) نظرات في كتاب الله، ص 204 – الإمام حسن البنا

ومعنى ﴿إِنَّا للهِ ﴾: أي أننا ملك له - تعالى - يتصرف فينا كيف يشاء، وأمورنا بين يديه يصرفها كما يشاء، وعلينا أن نتقبّل ذلك بكلّ رضى من دون اعتراض، وأن نؤمن بأنه - في موقع رحمته - لا يريد بنا إلَّا خيرًا مما يقرّبنا إلى المصلحة ويبعدنا عن المفسدة، وهو نعم المعتمد في كشف الضر وإزالة الكرب، وإنه مَلكَنَا بخلقه وتقديره وتصريفه فينا وله الأمر والتدبير.

﴿إِلَيْهِ رَاجِعونَ ﴾ فسنرجع إلى اللّه - تعالى - في نهاية المطاف، فنجد عنده الخير الكثير والنعيم العظيم، الذي نحصل فيه على كلّ ألوان السعادة التي يتلاشى معها كلّ حزن وألم مما عشناه في الحياة، وبذلك لا يبقى لآلام الحياة قيمة في إحساسنا الذاتي، لأنَّ انتظار لقاء اللّه في روح رضوانه ونعيم جنته؛ يطرد كلّ المشاعر الذاتية الخائفة والحزينة والقلقة في أجواء المصائب، وفي ذلك عزاء أي عزاء، وسلوى عن البلاء!

ولقد روى مسلم بسنده عن أم سلمة، أن رسول الله - ﷺ - قال: (ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله - عز وجل -: ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعون﴾. اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها) [1].

ولعل هناك سؤالًا يدور في ذهنك وهو.. على أي أساس يتنوع هذا الابتلاء فيكون نصيب أناس منه وفرة المال أو الصحة أو الجاه ونصيب آخرين الفقر أو المرض؟ أقول لك: إن الله - عز وجل -

(1) رواه بهذا اللفظ مسلم: كتاب الجنائز: باب ما يقال عند المصيبة (1525).

يتصرف في ملكه وفق حكمة عظيمة، لا تدركها عقولنا القاصرة في أكثر الأحيان، فهو أعلم بما يصلح عباده وينفعهم في الدنيا والآخرة بقطع النظر عن موافقة أفعاله - سبحانه - لأهواء الناس أو عدم موافقته إياها، فهو يبتليهم ويربيهم بما ينفعهم، ويحقق مصلحتهم سواء علموا ذلك أو جهلوه.

يقول رسول الله - عليه الصلاة والسلام -: (إنَّ الله ليحمي عبدَه المؤمن من الدنيا وهو يحبُّه، كما تحمون مريضكم الطعامَ والشرابَ؛ تخافون عليه) [1].

ألا ترى إلى الطفل يحرمه أبويه من كثير مما تتوق نفسه من اللذائذ والطيبات من أجل مصلحته وعاقبة أمره رغم تبرمه وضيقه؛ لجهله وقصور نظره. ولله المثل الأعلى، فهو سبحانه أعلم بحال عباده، وبما يجر لهم الخيرات، ويبعد عنهم المفسدات.. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك:14).

بقي أن أقول لك إن المؤمن الذي أشرقت أنوار الإيمان في قلبه واغترف من معين أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، يدرك أن المنع والعطاء كلاهما يصلانه بربه ويدنيانه من جنة معرفته والأنس به، ففي العطاء يشهد صفات بره ولطفه وإنعامه، وفي المنع يشهد صفات قهره وسطوته وسلطانه، فيكون حاله في ذلك كله التسليم والرضا والثقة بحكمة الله - تعالى - ولطفه.. وهذا ما توصل إليه ابن عطاء - رحمه الله - فقال:

(1) رواه الحاكم في المستدرك رقم (7465)

(متى أعطاك أشهدك برّه، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجوه لطفه عليك).

وما أجمل ما قاله د. مصطفى الرافعي - رحمه الله -: (تأتي النعمة فتدني الأقدار من يدك فرع الثمر الحلو، وأنت لا تدري جذره ولا تملكه، ثم تتحول فإذا يدك على فرع الثمر المر، وأنت كذلك لا ترى ولا تملك. ألا فاعلم أن الإيمان هو الثقة بأن الفرعين كليهما يصلانك بالله - تعالى -، فالحلو فرع عبادته بالحمد والشكر، وهو الأحلى عندك حين تذوقه بالحس، والمرُّ فرع عبادته بالصبر والرضا، وهو الأحلى حين تذوقه بالروح) [1].

من ثمرات الابتلاء:

نسيان حقيقة أنك مبتلى في هذه الحياة ومتقلب بين السراء والضراء، والمنع والعطاء؛ يجرك إلى الانزلاق في متاهات البطر والغرور عند وفود النعم، ويقيدك بسلاسل السخط والجزع عند حلول النقم!

(1) السحاب الأحمر ص35



لماذا نفشل في اختيار التكليف؟

(كلف الله - عز وجل - أبينا أدم، ألَّا يأكل من شجرة معينة، تمثل المحظور الذي لا بد منه؛ لتربية الإرادة، ثم أغراه الشيطان بالأكل منها، فوقع في فخ العصيان، ثم ندم وتاب واعتذر، فأُخرج من الجنة ونزل إلى الأرض، وشرع كثير من الأبناء يمثلون القصة نفسها ويرتكبون الخطأ ذاته، ولكنه ليس أكلًا من شجرة، بل اتباعًا للشهوات التي تقود إلى العصيان والحرمان!، العنوان متغير، والحقيقة واحدة)[1]

(1) مقتبس من كلمات الشيخ محمد الغزالي في كتابه (علل وأدوية)

وبدأت رحلة التكليف:

منذ اللحظة الأولى لخلق آدم - عليه السلام -، وسجود الملائكة له تكريمًا وتشريفًا، ورفض إبليس السجود استكبارًا واغترارًا، بدأت مرحلة الصراع بين آدم وذريته من جهة، وبين الشيطان من جهة أخرى؛ نتيجة حسد إبليس لآدم، ونقمته عليه ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً ﴾ (الإسراء:62).

ونجح الشيطان في إغواء آدم وزوجه، وزين لهما الأكل من الشجرة المحرمة، فكانت النتيجة خروج آدم من الجنة، ونزوله إلى الأرض.. ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ (البقرة:36) [1].

وبدأت رحلة الامتحان والتكليف على الأرض، وتتابع بعث الأنبياء والرسل وإنزال الكتب؛ من أجل رسم معالم الهداية لهذا الإنسان المستخلف في الأرض، وتحذيره من سلوك طريق الغواية

(1) لم تكن إذًا زلة آدم - عليه السلام - سببًا لشقاء ذريته وتعاستهم، ولم تكن السبب في حرمانهم من الخلود في الجنان كما يزعم الجهال، فهم في الحقيقة لم يخلقوا ليقضوا حياتهم فيها، وإنما خلقوا؛ ليعمروا الأرض بعبادته، سبحانه، كما قرر ذلك سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:30).
ولقد كانت تلك الزلة هي السبب الذي فتح لهم على أثره باب التوبة والاستغفار، وكان ذلك وسيلتهم للخلود الحقيقي في جنات النعيم.

والضــلال ﴿قُلْنَــا اهْبِطُــواْ مِنْهَــا جَمِيعــاً فَإِمَّــا يَأْتِيَنَّكُــم مِّنِّــي هُــدًى فَمَــن تَبِــعَ هُــدَايَ فَــلاَ خَــوْفٌ عَلَيْهِــمْ وَلاَ هُــمْ يَحْزَنُــونَ {2/38} وَالَّذِيــنَ كَفَــرواْ وَكَذَّبُــواْ بِآيَاتِنَــا أُولَئِــكَ أَصْحَــابُ النَّــارِ هُــمْ فِيهَــا خَالِــدُونَ ﴾ (البقـرة 38 - 39).

وهكـذا حمـل الإنسـان أمانـة التكليـف فـي الأرض، والتي تقتضـي طاعة الله - تعالـى - فـي أوامـره ونواهيـه والسـير علـى منهاجـه.. ﴿إِنَّـا عَرَضْنَـا الْأَمَانَـةَ عَلَـى السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَـالِ فَأَبَيْـنَ أَن يَحْمِلْنَهَـا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَـا وَحَمَلَهَـا الْإِنسَـانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًـا جَهُـولًا ﴾ (الأحـزاب: 72).

والتكليـف يسـتدعي الكلفـة والجهـد، ولا يتحقـق كل منهمـا إلا إن حُمِّـل الإنسـان أثقـالًا مـن الغرائـز والأهواء، وجُهِّز بأشـواق إلـى الحق والخير والإحسـان، ومُكِّـن بعـد ذلـك أن يختـار مـا يشـاء. إنهـا أمانـة ضخمـة حملها هـذا المخلـوق الصغيـر الحجـم، القليـل القـوة، الضعيـف الحـول، المحـدود العمـر الذي تناوشـه الشـهوات والنزعـات والميـول والأطمـاع.

لقد قضت حكمة الله - تعالى - أن تكون تجربة آدم - عليه السلام - فريدة ومميزة تلقـى فيهـا تدريبًـا علـى تلقي الغواية، وتـذوق العاقبة، وتجـرع الندامـة، ومعرفة العدو، والالتجـاء بعـد ذلك إلى الملاذ الأمين، واكتشـف من خلالها طاقاتـه وقدراته، وعلم نقاط ضعفه وقوته، وأدرك وسـائل ومداخل عدوه في التضليل والخداع، وعلم أن حرية الإرادة والاختيـار التـي زوده اللـه - تعالى - بها هي مناط التكليف والجـزاء، وأنه يملك التحليق بروحـه فـي السـماء بعيدًا عن جواذب الشـهوات وقيود الرغبات، فيسـتعلي بإيمانه على

إغـواء شـيطانه، وفـي المقابـل إذا وهنـت إرادتـه وفتـرت عزيمته، وضعف عـن مقاومة لهيـب شـهواته، فإن شـيطانه يقـوده إلى مسـتنقع الغواية ودرك الشـقاء.

أسباب الغواية:

هنـاك سـؤال يلـح علـى الأذهـان، وهـو كيـف يفشـل المـرء فـي اختبـار التكليـف، ويصـر علـى اتبـاع الشـيطان رغـم أنـه يمتلـك رصيـدًا كافيًـا مـن الخبرة والحكمـة مـن خـلال تجربـة آدم - عليه السـلام -، ورغـم التحذيـرات المتتالية من الاسـتجابة للشـيطان والانخـداع بوساوسـه؟

والإجابـة تتلخـص فـي أن: الإنسـان تتجاذبـه قوتـان تحـاول كل منهمـا أن تتغلـب عليـه، وأن توجهـه وجهتهـا: قـوة الخيـر التـى يؤازرهـا العقـل، ويرشـدها الوحـي، ويقويهـا العمـل الصالـح، وقـوة الشـر التـي تمدهـا الشـهوات، ويزينهـا الشـيطان، ويقـود إليهـا الهـوى، والـذي يتحكـم في اختيار الإنسـان لسـلوكه سـواء باختيـار الهـدى أو الضـلال، عامليـن:

الأول: العقـل (العلـم والإدراك): ودوره تبصيـر الإنسـان بـكل مـن الحـق والباطـل، والخطـأ والصـواب، فهم بمثابـة مصباح يضيء للمـرء معالم الطريـق، ويكشـف لـه الغـث مـن السـمين.

الثاني: القلـب (العاطفـة)، فهـو مجمـع العواطـف والمشـاعر والانفعـالات، وهـو المسـئول عـن قيـادة النفـس وتوجيـه زمامهـا لما تحـب وتشـتهي، والمتأمل فـي واقـع النـاس يـرى أن أكثرهـم يعرفـون الحـق ويميزونـه عـن الباطـل، ولكـن كـم منهـم مـن يخضـع سـلوكه للحـق الـذي عرفـه؟!

فعندما تصبح القيادة للعواطف التي يتحكم فيها الأهواء والشهوات الجانحة؛ يخفت صوت العقل ويعجز عن صرف القلب عن الخوض في الملهيات والملذات.

وهذا ما حدث مع آدم - عليه السلام - في معصيته، عندما استغل الشيطان نقطة ضعفه، وأدرك أن النفس والهوى هما مقود الإنسان إلى الشر، فعمد إلى تحريكهما عبر إثارة غريزتين أساسيتين في الإنسان، وهما: حب الخلود والبقاء، وحب التملك ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (طه:120).

(إنها إذًا «شهوة»الخلود هي التي استزل بها الشيطان آدم وزوجه، فأكلا من الشجرة.. أو شهوة «الملك».. القوة والسيطرة والسلطان. إذًا.. لقد صارت هذه الشجرة «شهوة».. يستوي أن تكون شهوة علم، أو شهوة قوة، أو شهوة سلطان، أو شهوة ملك، أو شهوة جنس، أو شهوة خلود.. إنها «شهوة» حين تركبه فلا يملك نفسه منها.. لا يملك الامتناع عنها حين يريد الامتناع. وعندئذ يتدخل عدوه الواقف له بالمرصاد، فيقوده من خطامه في طريق الشهوات. وعندئذ يبعد به عن الدور المعد له، دور الخلافة عن الله - تعالى -، فهو مشغول بشهوته، عاجز عن ضبط نفسه إزاءها، عاجز عن الارتفاع عنها، عاجز عن توجيه وجهه إلى أعلى.. إلى الله - عز وجل. ولكنه ليس ضعفًا أبديًّا، ولا هي زلة لا قيام منها، فهو يملك دائمًا أن يفيق من زلته بأن يرفع وجهه إلى خالقه.. ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة:37)، وتلك قيمة رئيسة من قيم

حياتـه، فهـو عرضـة للضعـف أمـام الشـهوات، ولكنـه كذلـك مـزود بالقـدرة علـى الإفاقـة مـن هـذا الضعـف؛ بالتوجـه إلـى الله، وفـي صميـم فطرتـه أن يفعل هذه وتلـك: ﴿وَنَفْـسٍ وَمَـا سَـوَّاهَا {91/7} فَأَلْهَمَهَـا فُجُورَهَـا وَتَقْوَاهَـا {91/8} قَـدْ أَفْلَـحَ مَـن زَكَّاهَـا {91/9} وَقَـدْ خَـابَ مَـن دَسَّـاهَا﴾ (الشمس 7 - 10) [1].

وهكـذا بنـو آدم فـي امتحـان التكليـف، يمـرون بنفـس تجربـة الإغـواء مـع الشـيطان.. نفـس الخـداع والتضليـل.. نفـس الوعـود المعسـولة والأمانـي البراقة.. نفـس الثغـرة ونقطة الضعف الدائمة: حب الشـهوات، واسـتغلال الشـيطان ضعف الإرادة، وبـرود العـزم، فتغـزو القلـب الأهـواء وتهجـم عليـه الشـهوات؛ لتفتـرس إيمانـه، وتنهـش تقـواه، إلا أن تتداركـه رحمـة ربـه، فتسـتيقظ مشـاعر عبوديتـه؛ لتقـوده إلـى محـراب النـدم وحصـن التوبـة، فيجـد فيـه الراحـة بعـد التعـب، والطمأنينـة بعـد القلـق، والأنـس بعـد الوحشـة، والاسـتقامة بعـد الشـرود والزلل.

حكمة خلق الشيطان ومنحه القدرة على الإغواء والتضليل:

وألمـح فـي عقلـك سـؤالًا لا يكاد يفارق ذهنـك وهو.. إذا كان الشـيطان له هذه القـدرة علـى التزييـن والتضليـل والخـداع، وهـو لا يمـلُّ مـن إغـواء البشـر وإغراءهم بمـا يسـوقهم- إن اسـتجابوا لـه - إلى مهـاوي الضلال وعـذاب الجحيم؛ فلماذا سـلطه اللـه علينـا، ومنحـه القدرة علـى إضلالنا؟!

(1) نقلًا من (منهج الفن الإسلامي) ص 166 - 167 بتصرف، (ودراسات في النفس الإنسانية) ص31 - 32، وكلا الكتابين للأستاذ محمد قطب - رحمه الله.

أجـاب عـن هذا السـؤال الإمـام ابن القيم - رحمـه الله تعالـى -، فذكر حكمًا كثيـرة، أقتطفُ منها هـذه الخمس [1]:

1. ما يترتب على مجاهدة الشيطان وأعوانه من إكمال مراتب العبودية:

فمنهـا أن يكمـل لأنبيائـه وأوليائـه مراتـب العبوديـة بمجاهدة عـدو الله وحزبـه، ومخالفتـه ومراغمتـه فـي اللـه - تعالـى -، وإغاظتـه وإغاظـة أوليائه، والاسـتعاذة بـه منـه، واللجـوء إليـه أن يعيذهم من شـرّه وكيـده، فيترتب على ذلـك مـن المصالـح الدنيويـة والأخرويـة مـا لم يحصـل بدونه.

2. جعله الله - تعالى - عبرة لمن اعتبر:

ومنهـا أن اللـه جعلـه عبـرة لمن خالـف أمره، وتكبـر عن طاعتـه، وأصرّ على معصيتـه، كمـا جعـل ذنـب أبـي البشـر عبـرة لمـن ارتكـب نهيـه، أو عصـى أمـره، ثـم تـاب ونـدم ورجـع إلى ربـه، فابتلـى أبوي الجـن والإنـس بالذنـب، وجعل هذا الأب عبـرة لمـن أصـرّ وأقـام علـى ذنبه، وهـذا الأب عبـرة إن تاب ورجـع إلى ربه.

3. الابتلاء به إلى تحقيق الشكر:

ومـن هـذه الحكـم أنـه - سـبحانه -، يحـبّ أن يشـكر بحقيقـة الشـكر وأنواعـه، ولا ريـب أن أوليـاءَه نالـوا بوجـود عـدو اللـه إبليـس وجنـوده، وامتحانهـم بـه مـن أنـواع شـكره، مـا لـم يكـن ليحصـل لهـم بدونـه، فكـم بيـن

---

(1) وذلك في كتابه (شفاء العليل في مسائل القدر والحكم والتعليل) ص 467 - 469

شكر آدم وهو في الجنة قبل أن يخرج منها، وبين شكره بعد أن ابتلي بعدوه ثم اجتباه ربه، وتاب عليه وقبله؟

4. ما حصل بسبب وجود الشيطان من محبوبات للرحمن:

فإن يكن قد حصل بعدو الله إبليس من الشرور والمعاصي ما حصل، فكم حصل بسبب وجوده، ووجود جنوده من طاعة هي أحب إلى الله - تعالى - وأرضى له من جهاد في سبيله، ومخالفة هوى النفس وشهوتها له، ويحتمل المشاق والمكاره في محبته ومرضاته، وأحبّ شيء للحبيب أن يرى محبّه يتحمل لأجله من الأذى ما يصدق محبته.

5. خلق الله خلقه بحيث يظهر فيهم أحكام أسمائه وصفاته وآثارها:

فالله - سبحانه - لكمال محبته لأسمائه وصفاته اقتضى حمده، وحكمته أن يخلق خلقًا يظهر فيهم أحكامها وآثارها، فلمحبته للعفو خلق من يحسن العفو عنه، ولمحبته للمغفرة خلق من يغفر له، ويحلم عنه، ويصبر عليه، ولا يعاجله، بل يكون يحب أمانه وإمهاله. ولمحبته لعدله وحكمته؛ خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته، ولمحبته للجود والإحسان والبر؛ خلق من يعامله بالإساءَة والعصيان، وهو - سبحانه - يعامله بالمغفرة والإحسان. فلولا خلقه من يجري على أيديهم أنواع المعاصي والمخالفات ؛ لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعافها، وأضعاف أضعافها).

وخلاصة القول: إن في مراغمة الشيطان وقهر وساوسه ومجاهدة نزغاته؛ تحريرٌ للمرء من كافة أشكال العبودية لغير الله - تعالى - والتي

يحركها الشيطان عبر إثارة الشهوات الكامنة في النفس، فالمرء وهو يجاهد وساوس الشيطان يقوم بتطهير قلبه من كافة العلل والآفات التي تمثل بذرة صالحة؛ لنمو وساوسه، كما أنه يزكي القلب بما يمارسه من عبوديات الصبر والخشية والرجاء والتوبة والتوكل والتضرع و..

وبذلك يرتقي في سلم العبودية، ويصعد في مدارج التقوى.

بقي أن أشير إلى أن الشيطان رغم كثرة مداخله، وتنوع أسلحته وعدته؛ لا يملك - في الحقيقة - إلا الوسوسة عبر بث الأماني الكاذبة والوعود الخادعة، فهو لا يملك إجبارك على سلوك طريق الغواية إلا أن تنخدع بوساوسه، وتستجيب لإغراءته.

وليس أدلّ على ذلك من أنه سيتبرأ من أتباعه يوم القيامة، ويلقي بالمسئولية التامة واللوم الكامل عليهم، كما سجل الله - عز وجل - ذلك في كتابه، فقال:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم: 22).

لو لم يكن في كتاب الله آية تتحدث عن وعود الشيطان وإغرائه إلا هذه الآية؛ لكفى بها زاجرًا للقلوب الغافلة، ومحذّرًا للنفوس الراقدة.

واعجبـاه.. إن الشـيطان ليـس بيـن يديـه قـوة قاهـرة ملـك بهـا أمـر هؤلاء الذيـن أضلّهـم وأوقعهـم فـى شـباكه، إنـه أشـبه بالصائـد الـذي ينصـب شـباكه للطيـر ويضـع فيهـا الحـبّ؛ فتسـقط عليهـا، وتعلـق بها، وتصبـح صيدًا فـي يده.

أُفٍّ لهـذه العقـول المتحجـرة، التـي تـرى الصـورة الكاملـة لما سـيكون عليه حـال الشـيطان ومـن والاه– وهـي مازالـت فـي حياتهـا الدنيا فـي مرحلـة الاختبار - قبـل معاينـة الأهـوال يـوم القيامـة، ثـم تأبـى إلا أن ترمـي بنفسـها إلـى أحضـان الشـيطان بكامـل إرادتهـا وطواعيتها!

مؤهلات النجاح في اختبار التكليف:

إذا كان اتبـاع الهـوى هـو مفتـاح كل الشـرور وأسـاس كل بلية، وهو مطية الشـيطان فـي إضـلال العبـاد وإغوائهـم، وهـو الباعث على فشـل العبد فـي اختبـار التكليف؛ فكيف السـبيل للنجـاة؟ الإجابـة فـي قـول اللـه - عـز وجـل -: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى {79/ 40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (النازعات40 - 41).

﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ هـي نقطـة الارتـكاز فـي دائـرة الطاعـة، فالهـوى هـو الدافـع القـوي لـكل طغيـان وكل تجـاوز وكل معصيـة، وهـو أسـاس البلـوى، وينبـوع الشـر، وقـل أن يؤتـى الإنسـان إلا مـن قِبَـل الهـوى، فالجهـل سـهلٌ علاجـه، ولكـن الهـوى بعـد العلـم هـو آفـة النفـس التـي تحتـاج إلـى جهـاد شـاق طويـل الأمـد لعلاجهـا، والخـوف مـن اللـه - تعالـى - هـو الحاجـز الصلـب أمـام دفعـات الهـوى العنيفـة، وقـل أن يثبـت غيـر هـذا الحاجـز أمـام

دفعات الهوى، ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة. ولم يكلف الله - تعالى - الإنسان ألا يشتجر(يتنازع) في نفسه الهوى، فهو - سبحانه - يعلم أن هذا خارج عن طاقته، ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها، وأن يستعين في هذا بالخوف. الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب، وكتب له بهذا الجهاد الشاق؛ الجنة جزاءً ومأوى، حين ينتصر ويرتفع ويرقي) [1].

وما أجمل حكمة ابن عطاء الله - رحمه الله -: (تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال.. لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق).

أي لا يكون سببًا في إخراج الشهوة المتمكنة من القلب إلا خوف من اللَّه - تعالى - مزعجٌ يَرِدُ على القلب من شهود صفات الجلال (العزيز، الجبار، القدير، القوي، المتين)، ومنشؤه النظر في الآيات المحتوية على ما أعد للعصاة من العذاب الأليم، أو شوق إلى اللَّه - تعالى - مقلق يرد على القلب من شهود صفات الجمال.. (الرحمن، الودود، اللطيف، العفو، الغفور، المحسن)، ومنشؤه النظر في الآيات المحتوية على ما أعد للطائعين من النعيم المقيم.

---

(1) في ظلال القرآن ج6/ 3819

من ثمرات الابتلاء:

عنـد التهـاب الشـهوات، ومعانـاة النفـس لسـكرات الهـوى، وانطفـاء شـعلة الخـوف فـي القلـب، يسـتغل الشـيطان هـذه اللحظـات، فيهجـم علـي ضحيتـه؛ فيوقعهـا في فـخ المعصية، فـإن كان فـي القلـب حيـاة؛ بـادرت النفـس اللوامـة بالنـدم والتوبـة.. وتبقـى كلمـة السـر فـي طريـق النجـاة.. المحافظة علـى حيـاة قلبـك بالمواظبة علـى الطاعات والعبـادات، ثم لا تضـرك المعصيـة مـا دامـت تقـودك إلـى محـراب الإنابـة.



استرداد هوية العبودية

(الشدائد والمحن تقود العبد إلى محراب العبودية، فيكتشف حقيقة ضعفه وفقره وعجزه وتذلّله لله، فتسقط أقنعة العجب والغرور، وتزول حجب الغفلة والاستكبار، وعندها يتذوق المرء حلاوة العبادة، ولذة الطاعة، وروعة القرب، ونسمات الأنس).

لا تتنكر لهويتك:

يحتاج العبد المؤمن - وهو يؤدي اختبار التكليف في رحلته على الأرض - أن يتذكر دومًا أنه عبد مملوك لله - سبحانه وتعالى - تحت قبضته وسيطرته، يعلن له عن فقره المطلق أمام غناه المطلق، وعن عجزه المطلق أمام قوته التي لا حد لها، وعن سوء حاله أمام واسع رحمته وعفوه، وعن جهله المطبق أمام علمه المحيط بكل شيء، وعن حاجته الدائمة إليه في كل شيء. هذه هي هوية عبوديته وجواز مروره إلى رضا ربه وجنته الدنيوية قبل الأخروية. قال الله - عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر:15).

(يخاطب - تعالى - جميع الناس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم، لم يوجدوا.

فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم بها؛ لما استعدوا لأي عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور؛ لما حصل لهم من الرزق والنعم شيء.

فقـراء فـي صـرف النقـم عنهـم، ودفـع المـكاره، وإزالـة الكـروب والشـدائد. فلـولا دفعـه عنهـم، وتفريجـه لكرباتهـم، وإزالتـه لعسـرهم؛ لاسـتمرت عليهـم المـكاره والشـدائد.

فهـم فقـراء بالـذات إليـه، بـكل معنـى، وبـكل اعتبـار، سـواء شـعروا ببعـض أنـواع الفقـر، أم لـم يشـعروا، ولكـن الموفق منهم، الـذي لا يزال يشـاهد فقره في كل حـال مـن أمـور دينـه ودنياه، ويتضرع له، ويسـأله أن لا يكله إلى نفسـه طرفة عيـن، وأن يعينـه علـى جميع أموره، ويسـتصحب هذا المعنى فـي كل وقت، فهذا أحـرى بالإعانـة التامـة مـن ربـه وإلهه، الذي هـو أرحم به مـن الوالـدة بولدها)[1].

ويكفـي أن يتذكـر الإنسـان مـا يصيبـه مـن حيـرة وذهـول، عندما يفاجـأ بما لـم يكـن فـي الحسـبان، فتختـل موازيـن حياتـه العاديـة، ويشـعر بأنـه قـد نزلـت بسـاحته أكبـر داهيـة، وبذلـك يظهـر الفقـر الطبيعـي للإنسـان، ويتجلـى عجـزه البالـغ للعيـان، ولا تعـود حياته سـيرتها الأولـى إلا إذا حفته الألطـاف الخفية، فمنَّ اللـه - تعالـى - عليـه، وأمـده مـن جديـد بمـا يحتـاج إليه.

فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا:

غيــر أن الإنســان ينســى هــذه الحقيقــة، ويغفــل عنهــا عنــد تتابــع النعــم والتقلــب فــي المتــع وبســط الــرزق وطــول الرخــاء، فيتمــرغ فــي أوحــال الشــهوات، ويتيــه فــي مســتنقع الملــذات والملهيــات، فيصبــح عبــدًا لأهوائــه ورغباتــه، لا يسـتطيع التحـرر مـن سـلطانها ولا الخـروج مـن مدارهـا.

(1) تفسير السعدي ج309/6 - 310 بتصرف

عندهـا، تأتـي الشـدائد والمصائـب؛ لتوقظـه مـن غفلتـه وتنبهـه مـن سـكرته، فتهيـج مشـاعر النـدم فـي قلبـه لتوجـه إلـى محـراب الافتقـار؛ بحثًـا عـن هويـة عبوديتـه، والتـي فقدهـا تحـت تأثيـر سـكرة الشـهوات وجـواذب الغفـلات، فيـدرك حينهـا بـأن حاجتـه إلـى ربـه ذاتيـة فـي كل لحظـة وليسـت عرضيـة بحيـث تظهـر فـي حالـة الحرمـان، وتختفـي فـي حالـة الطمأنينـة والعطـاء.

(كـم مـن رجـل عـاش حياتـه، لـم يـذق طعـم الضراعـة علـى بـاب الرحمـن، ولـم تنبسـط يـداه إليه بسـؤال صاعـد من الأعمـاق، ولم يستشـعر شـيئًا من نعيم الـذل لقيـوم السـماوات والأرض، إذ كانـت النعمـة تأتيـه رغـدًا من كل مـكان، فلم يكـن ثمـة مـا يقوده إلـى ذل المسـألة وضراعة العبوديـة. فلما ابتلاه اللـه - تعالى - بالمصيبـة التـي لـم تنفعـه فيهـا محبـة صديـق ولا إخـلاص طبيـب، ولـم تنقـذه منهـا أمـوال الدنيـا ولا زعامـات الزعمـاء ولا بطـش الأقويـاء؛ تذكـر مـولاه الـذي لا مولـى سـواه، وضـل مـن حولـه من يدعـوه إلا إياه، فأسـرع إلـى باب اللـه - تعالى - يتمـرغ فـي أعتابـه، يناديـه مـن أعمـاق قلـب كسـير: هـا قد عـدت إليـك يا رب بعـد طـول شـرود وابتعاد، لبسـت جلباب عبوديتـي لك، وقبعت في ذل انكسـاري إليـك، وصحـوت إلـى عظيم فضلـك وبالـغ منَّتك ولطفـك) [(1)].

وقـد أشـار اللـه - تعالـى - إلـى هـذه الحقيقة في قولـه تعالـى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَـلنَآ إِلَى أُمَـمٍ مِّـن قَبْلِـكَ فَأَخَذْنَاهُـمْ بِالْبَأْسَـاء وَالضَّـرَّاء لَعَلَّهُـمْ يَتَضَرَّعُـونَ {6/42} فَلَـوْلا إِذْ جَاءهُـمْ بَأْسُـنَا تَضَرَّعُـواْ وَلَكِـن قَسَـتْ قُلُوبُهُـمْ وَزَيَّـنَ لَهُـمُ الشَّـيْطَانُ مَـا كَانُـواْ يَعْمَلُـونَ ﴾ (الأنعام 42 - 43).

(1) الإنسان وعدالة الله في الأرض، ص 31

وهكـذا تتحـول الشـدائد والبلايـا إلى منـح وعطايـا عندما توقـظ الفطرة من غفوتهـا، وتسـتخرج مـن القلـوب قسـوتها، وتذكـر الـروح بهويـة عبوديتهـا، وتعلن النفـس توبتهـا، وأوبتهـا بعد طـول غفلتها وشـرودها!

ويحك يا صاح..

أتنتظـر لحظـات الهزيمـة والانكسـار حتـى تشـعر بحاجتـك للافتقـار للملـك الجبار؟!

وهل عودة الوصال وإزالة الجفاء لا تكون إلا في أوقات المحن والضراء؟!

أتظن أنك - فقط - في الشدائد تجني الفوائد؟!

أنـت فقيـر فـي كل الأوقـات والأحـوال.. فـي صحتـك، ومرضـك، فـي قوتـك وضعفـك، فـي عسـرك ويسـرك، فـي طاعتـك ومعصيتـك.

فلم لا تعلن عن هوية عبوديتك، وتغترف من ينابيع سعادتك؟!

ومـا أجمـل نصيحـة ابن عطـاء اللـه - رحمه اللـه -: (تحقـق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقـق بذلّـك يمـدك بعـزه، تحقـق بعجـزك يمـدك بقدرتـه، تحقـق بضعفـك يمـدك بحولـه وقوتـه).

واحفـظ هـذه الجملـة جيـدًا وانقشـها فـي قلبـك؛ لتسـتحضرها فـي أوقـات الضراء:

(إن الانكسـار والأنيـن الناتـج عـن ألـم البـلاء، هـو السـبيل الوحيد لاسـترداد هوية العبوديـة بعدما طمسـتها نـوازع الشـهوات وريـاح الغفلات!)

الافتقار إلى الله - تعالى - لب العبودية:

لا تنمو شجرة العبودية إلا على ساق الافتقار، ولا يتحقق الافتقار إلا عندما يدرك العبد عظمة خالقه وجبروته - سبحانه وتعالى - في مقابل ضعف المخلوق التام وعجزه المطلق. (فَحَقِيقَةُ الْفَقْرِ أَنْ لَا تَكُونَ لِنَفْسِكَ. وَلَا يَكُونَ لَهَا مِنْكَ شَيْءٌ، بِحَيْثُ تَكُونُ كُلُّكَ لِلَّهِ. وَإِذَا كُنْتَ لِنَفْسِكَ فَثَمَّ مِلْكٌ وَاسْتِغْنَاءٌ مُنَافٍ لِلْفَقْرِ. فَالْفَقْرُ الْحَقِيقِيُّ: دَوَامُ الِافْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَأَنْ يَشْهَدَ الْعَبْدُ - فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ - فَاقَةً تَامَّةً إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - مِنْ كُلِّ وَجْهٍ) [(1)].

(وإنما يصح له هذا بمعرفتين لا بد منهما: معرفة حقيقة الربوبية والإلَهية، ومعرفة حقيقة النفس والعبودية، فهنالك تتم له معرفة هذا الفقر، فإن أعطي هاتين المعرفتين حقهما من العبودية اتصف بهذا الفقر حالًا، فما أَغناه حينئذ من فقير، وما أَعزه من ذليل، وما أَقواه من ضعيف، وما آنسه من وحيد. فهو الغني بلا مال، القوي بلا سلطان، العزيز بلا عشيرة، المكفي بلا عتاد. قد قرَّت عينه بالله - تعالى - [فقَرَّت به كل عين، واستغنى بالله - تعالى - فافتقر إليه الأَغنياءُ والملوك) [(2)]

(1) المهذب من مدارج السالكين ص300 بتصرف – الإمام ابن القيم - إعداد الشيخ صالح الشامي

(2) تقريب طريق الهجرتين ص89

أما معرفة حقيقة الربوبية والإلَهية(إدراك عظمة الخالق)، فتتحقق عبر التفكر:

1 - التفكر في الكون (كتاب الله المنظور):

الكون كله كتاب مفتوح تقرأ فيه دلائل الإرادة والقدرة، وآيات العظمة والكمال، في كل آية تتجلى الحكمة العظيمة، والتقدير البديع، والتنظيم الحكيم، والتركيب العجيب.

وقد قلب القرآن في آياته المتلوة صحف هذا الكون أمام الإنسان، دخل به نفسه، وصعد به إلى السموات، نزَل به إلى الأرض، وطاف به الوديان والجبال، وغاصَ به البحار، ودعاه في كل ذلك مرارًا وتكرارًا إلى النظر في آياته العقلية والحِسية.

قال الله - عز وجل -: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ {3/190} الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران190 - 191).

إن التفكر المصحوب بالتذكُّر هو الذي يَطبع في النفوس صورَ الجلال الذي يملأ النفس رَهْبة، وصورَ الجمال الذي يملأ النفس رَغبة، فتدرك النفس عظمة الله - تعالى - وتسجد في محراب الافتقار.

2 - التفكر في القرآن (كتاب الله المسطور):

القـرآن الكريـم كتـاب هدايـة يقـود العبـد عبـر تدبره إلـى معرفة اللـه - عز وجـل - بصفـات الجمـال والجـلال عبـر الدعوة المسـتمرة للتفكير في آيـات الله - تعالـى - والتأمـل فـي مخلوقاتـه والنظر فـي ملكوته.

قال الامام ابن القيم - رحمه الله -:

(القـرآن كلام اللـه، وقـد تجلـى اللـه فيـه لعبـاده بصفاتـه، فتـارة يتجلـى في جلبـاب الهيبـة والعظمـة والجـلال، فتخضـع الأعنـاق، وتنكسـر النفـوس، وتخشـع الأصـوات، ويـذوب الكبـر، كمـا يـذوب الملـح فـي الماء، وتـارة يتجلى فـي صفات الجمـال والكمـال، وهو كمال الأسـماء وجمـال الصفات وجمال الأفعـال الدال على كمـال الـذات، فيسـتنفد حبـه مـن قلـب العبد قـوة الحب كلها، بحسـب مـا عرفه مـن صفـات جمالـه، ونعـوت كماله، فيصبـح فؤاد عبـده فارغًا إلا محبتـه، فإذا أراد منـه الغيـر أن يعلـق تلـك المحبـة به أبـى قلبه وأحشـاؤه ذلـك كل الإبـاء. وجماع ذلـك: أنـه سـبحانه يتعـرف الى العبـد بصفات إلهيته تـارّة، وبصفـات ربوبيته تارة، فيوجـب لـه شـهود صفـات الالهيـة المحبـة الخاصة، والشـوق إلـى لقائـه، والأنس والفـرح بـه، والسـرور بخدمته، والمنافسـة في قربـه، والتودد اليـه بطاعته، واللهج بذكـره، والفـرار مـن الخلـق إليـه، ويصير هـو وحده همـه دون ما سـواه. ويوجب لـه شـهود صفـات الربوبيـة والتـوكل عليـه، والافتقـار إليـه، والاسـتعانة بـه، والذل والخضـوع والانكسـار له) [1]

---

(1) فوائد الفوائد ص63 - 65 بتصرف - الإمام ابن القيم– إعداد الشيخ علي الحلبي

ويكفـي أن تتدبـر آيـة الكرسـي– أعظـم آيـة في كتـاب الله تعالـى - ؛ لتقف علـى معانـي العظمـة والكبريـاء والمجـد والبهـاء، وتلمـح فيهـا جمـال الألوهيـة، وجـلال الربوبيـة، وتمـام القيوميـة، ومطلـق الإرادة، وتشـاهد مـن خلالهـا عظمـة ملكـه وسـلطانه وامتـداد ملكوتـه وسـعة غنـاه وشـمولية علمـه، وعظمـة خزائنـه، وكثـرة كنـوزه، وغـزارة أرزاقـه [1].

كل هـذه المعانـي الإيمانيـة الصافيـة، وغيرهـا - التـي تنشـأ فـي محـراب التفكـر - إذا تدبرهـا القلـب بخشـوع وافتقـار؛ فتحـت لـه نافـذة إلـى تعظيـم اللـه وإجلالـه، ومـن ثـم الشـعور بالحاجـة الملحـة لارتـداء كسـوة التذلـل والعجز والوقـوف فـي محـراب العبوديـة للـه خجـلًا، يحدثه عن حبـه، ويشـكو العجز عن أداء حقـوق حبـه لـه، يريـه كوامـن حبـه المهتـاج بين جوانحـه وصـدق رغبته في إيثـاره والقـرب منـه والوصـول إلـى رضـاه علـى سـائر رغائبـه النفسـية وحظوظـه البشـرية، فينـزل علـي قلبـه نسـمات الأنـس والسـعادة والسـكينة وراحـة البـال.

فيـا لهـا مـن لذة لـو عرفها الغارقـون في مسـتنقع العبوديـة الذليلـة للأهواء والشـهوات لقاتلونـا عليهـا بالسـيوف، بل بالمدافـع والطائرات!

وأما معرفة حقيقة النفس (إدراك ضعفها وعجزها):

فيكفي تدبر قول الله - عز وجل - ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾

(النساء: 28)

---

(1) لي بفضل الله كتاب بعنوان (وربك فكبر) وهو سياحة إيمانية في تدبر آية الكرسي والتنقيب عن إشراقاتها وأنوارها وهداياتها؛ فارجع إليه إن شئت.

ضعيـف فـي أصل خلقتـه، خلق من مـاء مهين ونطفة حقيـرة ﴿أَلَـمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّـاء مَّهِينٍ ﴾ (المرسلات:20)

ضعيـف فـي احتياجاتـه لمقومـات حياتـه ومـواد بقائـه (الهـواء- المـاء- الطعـام- الشـراب- النـوم- حركـة الأمعـاء والهضـم- انتظـام ضربـات القلـب - التنفـس..) ولـو تخلـى عنـه مـولاه طرفـة عيـن؛ لضـاع وهلـك.

ضعيـف أمـام الشـهوات والرغبـات.. تغلبـه المـرأة الفاتنـة، وتخدعـه الشـهرة الزائفـة، وتفتنـه الشـهوة الجامحـة، وتأسـره الأمـوال والثـروات الهائلـة.

ضعيـف أمـام وسـاوس الشـيطان.. يخدعـه بنفـس حيلـه القديمـة، ومكائده المعهودة.

ضعيـف أمـام المـرض.. لا يملـك مقاومـة أنّاته وزفراته، ولا يسـتطيع شـفاءه وعلاجـه إلا بتوفيـق مـولاه وفضله.

ضعيـف حتـى لـو امتلـك القصـور الفارهـة أو الكنـوز الطائلـة أو السـلطان العريـض أو الملـك الواسـع أو القـوة الباطشـة أو العلـم الغزيـر!.

يكفـي أنـه لا يسـتطيع تحمـل الألـم إذا أصابـه أصغـر الفيروسـات، أو لدغته أضعـف الحشـرات، أو مسـته أهـون الكربات!

ضعيـف إلا أن يسـتمد قوتـه مـن صلتـه بخالقـه فينكسـر على بابـه وينطرح علـى أعتابـه، وليـس مـن عـوارض الدنيـا الزائلـة - مـن قـوة وعافيـة وغنـى وعلـم وأمـن - التـي توشـك أن تفارقـه أو يفارقهـا.

فيا لبؤس المرء الذي تخدعه لحظات الرخاء والاستقرار، فيتصور أنه سيد هذا الكون وصاحب القرار!، ويرى أنه مبعث القوة إن سار وتحرك، أو مبعث الدراية والفهم إن علم وتعلم، أو مبعث الملك والغنى إن شبع وتنعم، أو مبعث الغلبة والقهر إن قدر وتحكم، ولكن تتحطم كل هذه الأوهام في أوقات الفاقة والاضطرار، فيعود المرء إلى أصله عاجزًا، ضعيفًا، فقيرًا، جاهلًا، ذليلًا، لا غنى له عن ربه ومولاه طرفة عين، وإلا ضاع وهلك!

أيوب - عليه السلام - .. ذكرى للعابدين:

قص الله - تعالى - علينا في كتابه قصة أحد أنبيائه الذي ضرب نموذجًا فريدًا في الإحساس بالحاجة والافتقار التام إلى مولاه، لا سيما في حال البلاء والشدة، فقد ابتلاه الله - تعالى - ابتلاءً عامًّا؛ فقد مسه الضر في نفسه وبدنه، وأهله وأولاده، وأمواله وممتلكاته.

قال الله - عز وجل -: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {21/83} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ (الأنبياء 83 - 84)

(وقد جمع أيوب– عليه السلام - في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته - سبحانه -، وشدة حاجته وهو فقره. ومتى وجد المبتلى هذا؛ كشف عنه بلواه)[1].

(1) فوائد الفوائد ص151

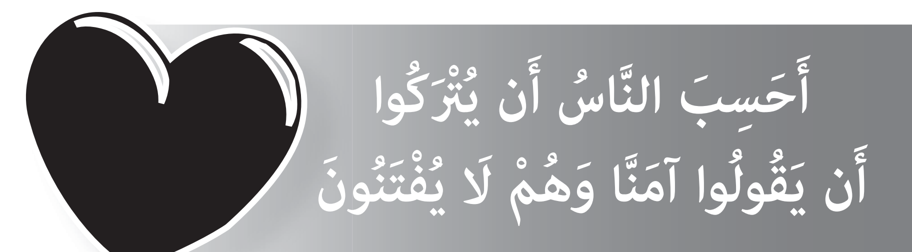
وانظر إلى هذا الأدب النبوي العظيم في مناجاة الخالق - جلّ وعلا -، فأيوب - عليه السلام - مع هذا البلاء العظيم، الذي شمله في نفسه وأهله وماله جميعًا، لم يستبدّ به الجزع، ولم تستولِ عليه الحيرة، ولم تحرقه أنفاس الضيق والألم.. بل وقف بين يدي الله متبتلًا متذللًا يجأر إليه بشكوى عجزه وضعفه، ويسترحمه لفقره وسوء حاله، فهو يوقن بأن الله - تعالى - وحده هو القادر على كشف الضر عنه، وحمايته من كل سوء ومكروه؛ فكانت الاستجابة الربانية له والرحمة الإلهية تغمره وتحوطه ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾

وقد أثنى الله - تعالى - على أيوب - عليه السلام - ومنحه وسام العبودية ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص44).

وهكذا عندما يشهد العبد فاقته وافتقاره إلى مولاه، يلذ له القيام والوقوف بين يدي الله في الأسحار، وينتشي بعرض شكواه عليه، واسترحامه لضعفه ومسكنته، يطيل السجود في هدأة الليل ويناجيه منكسرًا باكيًا، يستنزل صفحه عن ذنوبه التي ساقها إليه ضعفه، ويستدفع الأخطار والمصائب التي يراها تطوف به أو تدنو منه، ويسترحمه بعجزه وفاقته وضعفه.

من ثمرات الابتلاء:

لـم أعـد أضيق ذرعًا بالمحـن والابتلاءات عندما اكتشـفت أنها تعيـد قلبـي الشـارد إلى حظيـرة العبودية، فتنقلني من سـجن الشـهوات إلـى واحـة الطاعـات، ومـن الغفلـة والاغتـرار إلـى التذلـل والانكسـار، ومـن وحشـة المعصيـة إلـى الأنـس باللـه - تعالى.



(ما أسهل دعاوى الإيمان في لحظات الاستقرار والرخاء، وما أصعب ممارسة هذا الإيمان عندما يدخل المرء ساحة الحياة ويتعرض للتحديات والضغوط والإغراء!. وعندها، يتبين الذهب من التراب، والصدق من الادعاء)

الابتلاء قرين الإيمان:

يتوهـم كثيـر مـن النـاس أنـه بمجـرد إعـلان إيمانه أنه غيـر مطالـب بتقديم بينـة أو دليـل يؤكـد دعـواه ويثبـت صدقـه وإخلاصـه، أو أن الطريـق إلـى اللـه - بمجـرد إيمانـه - أصبـح مفروشًـا بالـورود والرياحيـن أو آمنًـا وخاليًـا مـن العقبات والمصاعـب والمشـقات!

كلا.. لابـد مـن الامتحـان بالشـدائد والابتـلاء بالمـكاره؛ ليتبين هـل هو إيمان صـادق، انشـرح بـه الصـدر، واطمـأن بـه القلـب، أم هو مجـرد صورة من الشـارات والمراسم؟

قـال اللـه - عـز وجـل -: ﴿أَحَسِـبَ النَّـاسُ أَن يُتْرَكُـوا أَن يَقُولُوا آمَنَّـا وَهُمْ لَا يُفْتَنُـونَ {29/2} وَلَقَـدْ فَتَنَّـا الَّذِيـنَ مِـن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّـهُ الَّذِيـنَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَـنَّ الْكَاذِبِيـنَ ﴾ (العنكبوت 2 - 3)

(إن الإيمـان ليـس كلمـة تقـال، إنمـا هـو حقيقـة ذات تكاليـف، وأمانـة ذات أعبـاء، وجهـاد يحتـاج إلـى صبـر، وجهـد يحتـاج إلـى احتمـال. فـلا يكفـي أن يقـول النـاس: آمنـا. وهـم لا يتركـون لهـذه الدعـوى، حتـى يتعرضـوا للفتنـة فيثبتـوا عليهـا ويخرجـوا منهـا صافيـة عناصرهـم خالصـة قلوبهـم. كمـا تفتـن النـار الذهـب؛ لتفصـل بينـه وبيـن العناصـر الرخيصـة

العالقـة بـه - وهـذا هـو أصـل الكلمـة اللغـوي ولـه دلالتـه وظلـه وإيحـاؤه [1]، وكذلـك تصنـع الفتنـة بالقلـوب)[2]، وهـل يصفّـى الذهـب مـن الغثـاء الـذي علـق بـه، إلا إذا صُهـر بالنـار؟

إنـه (مـا مـن شـخص يدعـي الإيمـان إلا مُحِّصـت نفسـه بألـوان التكاليـف، وبُليـت بمراتـب شـتى مـن الجهـاد، جهـاد الشـبهات، وجهـاد الحيـاة والمبـادئ. ولابـد أن يجتـاز الشـخص هـذا الامتحـان، ليحكـم بعدئـذ بنجاحـه أو سـقوطه.. والتكاليـف التـي شـرع اللـه لعبـاده هـي الطليعـة الأولـى للفتـن التـي تقتحـم

(1) قـال الأزهـري في تهذيـب اللغـة: (جـماع معنـى الفتنـة في كلام العـرب الابتـلاء والامتحـان وأصلهـا مأخوذ من قولـك «فتنـت الفضـة والذهـب " أذبتهـما بالنـار ليتميز الرديء من الجيـد)، وذكـر الجرجـاني في التعريفـات أن الفتنـة: مـا يتبـين بـه حـال الإنسـان مـن الخـير والـشر، يقـال: فتنـت الذهـب بالنـار، إذا أحرقتـه بهـا لتعلـم أنـه خالـص أو مشـوب، ومنـه: الفتـان، وهـو الحجـر الـذي يجـرب بـه الذهـب والفضـة) (معجـم التعريفـات ص 138).. وقـال الأصفهاني:(والْفِتْنَـةُ مـن الأفعـال التـي تكـون من اللـه - تعـالى -، ومـن العبـد كالبليّـة والمصيبـة، والقتل والعـذاب وغير ذلك مـن الأفعال الكريهـة، ومتـى كان مـن اللـه - تعـالى - يكـون عـلى وجـه الحكمـة، ومتـى كان مـن الإنسـان بغـير أمـر اللـه - تعـالى - يكـون بضـدّ ذلـك، ولهـذا يـذمّ اللـه الإنسـان بأنـواع الفتنـة في كلّ مـكان) (مفـردات ألفـاظ القـرآن ص624)

(2) في ظلال القرآن ج2720/5. راجع ما كتبه الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - في ظلال الآية السابقة فهو كلام قيم ونفيس.

النفس، وتكشف دخائلها، ولن تزال هذه الفتن تسبر أغوار الإيمان(أي تحيط علمًا به ظاهرًا وباطنًا)، ومدى صلابته، ومدى استعداد صاحبه للنعيم أو للجحيم؛ حتى يرجع الإنسان من حيث بدأ، إلى الله) [1]

وهكذا كما يحتاج الرياضي لتدريب مستمر وجهد دائب؛ لنمو عضلاته وتقويتها، كذلك تحتاج عضلة الإيمان إلى تدريب متواصل وامتحانات متتالية؛ لتقاوم رياح الشهوات وأعاصير الأهواء، وتصبح قادرة على الثبات والصمود وسط أمواج الفتن والمحن.

الفتن وتقوية بنيان الإيمان:

إن الإيمان الذي يريده الله - عز وجل - من عباده هو الإيمان الحي الفاعل المؤثر الذي يبعث على الحركة والهمة، والنشاط والسعي، والجهد والمجاهدة، والاستعلاء والعزة، والثبات واليقين. ولكي يصل الإيمان إلى هذه الدرجة السامقة يحتاج إلى سلسلة متواصلة من الشدائد والمحن؛ لتصفي ما علق به من شوائب أو كدورات، وتنقيه من نوازع الجزع والقلق والاهتزاز، فهذه الابتلاءات كالامتحان الذي نُجريه للتلاميذ؛ لنعرف مقدرة كل منهم، والمهمة التي يصلح للقيام بها، ومعلوم أن الابتلاءات لا تُذَمُّ لذاتها، إنما لنتائجها المترتبة عليها، فما جُعِلَتْ الابتلاءات إلا لمعرفة النتائج، وتمييز الأصلح للمهمة التي نُدِب إليها.

(1) عقيدة المسلم ص154 - 155 – الشيخ محمد الغزالي

وتتنوع الفتن التي تضع الإيمان موضع الاختبار بين فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة.

يقول ابن عجيبة - رحمه الله - في تفسيره للفتنة في قوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ أي: (أظن الناس أن يدّعوا الإيمان، ولا يختبرون عليه ليظهر الصادق من الكاذب، بل يمتحنهم اللّه بمشاق التكليف من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء، ورفض الشهوات، ووظائف الطاعات، وبالفقر، والقحط، وأنواع المصائب في الأموال والأنفس؛ ليتميز المخلص من المنافق، والثابت في الدين من المضطرب فيه، ولينالوا بالصبر على ذلك عوالي الدرجات. فإن مجرد الإيمان، وإن كان عن خلوص قلب، لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب، وما نال العبد من المكاره يسمو به إلى أعلى الدرجات وأعظم المقامات، مع ما في ذلك من تصفية النفس وتهذيبها؛ لتتهيأ لإشراق أنوار مقام الإحسان) [1].

فالإيمان مسئولية ضخمة لا ينجح في حمل أعبائها وتكاليفها إلا من يمتلك مهارة السباحة في الأمواج الهائجة التي تتلاعب بها تيارات الشهوات والمغريات، لا يأبه بما يلاقيه من صعوبات وتحديات.

إن كثرة الفتن والمحن تعلم المؤمن كيف يواجه الشهوات، وكيف يتعامل مع مداخل الشيطان، ومزالق الطريق، ومسارب الضلال. تعلمه

(1) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج 4/ 286

كيـف يواجـه المشـاق بصبـر وعزيمـة موصوليْـن بالأمـل فـي رحمة اللـه، والرجاء فـي نصرتـه. وكيـف يتحرر من أسـر حب الدنيـا الفانيـة والتعلق بزخارفهـا الزائلة، ويضحـي في سـبيل ربـه بالغالـي والنفيس.

إن النـاس جميعًـا علـى سـواء فـي حـال الأمـن والعافيـة، فـإذا كانـت المحن والشـدائد، فهـم أنمـاط وأشـكال، وهـم معـادن مختلفـة بيـن غـثٍّ وثميـن (فمن كان عنـد ورود الشـبهات، يثبـت إيمانـه ولا يتزلـزل، ويدفعهـا بما معـه من الحق. وعنـد ورود الشـهوات الموجبـة والداعية إلـى المعاصي والذنـوب، أو الصارفة عن مـا أمـر اللـه - تعالـى - بـه ورسـوله، يعمـل بمقتضـى الإيمـان، ويجاهـد شـهوته؛ دلَّ ذلـك علـى صـدق إيمانـه وصحتـه. ومـن كان عنـد ورود الشـبهات، تؤثـر فـي قلبـه شـكًّا وريبـة، وعنـد اعتـراض الشـهوات، تصرفه إلـى المعاصـي أو تصدفه عن الواجبـات؛ دلَّ ذلـك علـى عـدم صحـة إيمانه وصدقـه) [1]

وكلمـا تهيـأت النفـس للارتقاء فـي مدارج الكمال البشـري، اشـتد عليها البلاء وتتابعـت الشـدائد. ألـم يخبرنـا النبـي - عليـه الصلاة والسـلام - بذلك عندما سـئل أَيُّ النَّـاسِ أَشَـدُّ بَـلاَءً؟ فقَالَ:(الْأَنْبِيَـاءُ ثُـمَّ الْأَمْثَـلُ فَالْأَمْثَـلُ يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَـبِ دِينِـهِ، فَإِنْ كَانَ فِـي دِينِـهِ صلابـةٌ اشْـتَدَّ بَـلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِـي دِينِـهِ رِقَّةٌ ابْتُلِـيَ عَلَى حَسَـبِ دِينِـهِ، فَمَـا يَبْـرَحُ الْبَـلَاءُ بِالْعَبْـدِ حَتَّـى يَتْرُكَهُ يَمْشِـي عَلَـى الْأَرْضِ وَمَـا عَلَيْهِ مِـنْ خَطِيئَةٍ)[2]

(1) تفسير السعدي ج6 /66 - 67

(2) صحيح سنن ابن ماجه:(3249)

متى ينهار بنيان الإيمان؟!:

عندما تكون مسألة الإيمان موقفًا سطحيًّا لا عمق له، وتكون العبادة حركة في الشكل لا في المضمون، يهتز الإنسان في مواطن الشدة والابتلاء، فينهار بنيانه ويفقد اطمئنانه، فينقلب علي وجهه وينتكس عن الهدى.

وقد ذكر الله - تعالى - في كتابه هذا الصنف من الناس في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج:11)

إنه نموذج الإنسان الذي يعيش الاسترخاء في إيمانه فلا يبحث إلا عن الرخاء واليسر والربح، فإذا ابتلاه الله بما يفتن به الله عباده من البلاء المتنوّع في أجسادهم وفي أموالهم، وفي شهواتهم وأهلهم وأولادهم، اهتز إيمانه واضطرب يقينه، ولم يستطع الثبات أمام المحن، فيسقط في فخ الجزع والضيق والشك، ويفترسه القلق والاضطراب، ويخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضى ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ، فيا له من خسران!

وقد ذكر الله نموذج آخر لهذا الصنف في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ ...﴾ (العنكبوت:10)

فهذا (النموذج من الناس، يعلن كلمة الإيمان في الرخاء يحسبها خفيفة الحمل، هينة المئونة، لا تكلف إلا نطقها باللسان، «فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ» بسبب الكلمة التي قالها وهو آمن معافى «جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ» فاستقبلها في جزع، واختلت في نفسه القيم، واهتزت في ضميره العقيدة وتصور أن لا عذاب بعد هذا الأذى الذي يلقاه، حتى عذاب الله، وقال في نفسه: ها هو ذا

عـذاب شـديد أليـم ليـس وراءه شـيء، فعـلام أصبـر علـى الإيمـان، وعـذاب اللـه لا يزيد علـى مـا أنـا فيـه مـن عـذاب؟ وإن هـو إلا الخلـط بيـن أذى يقـدر علـى مثلـه البشـر، وعـذاب اللـه الـذي لا يعـرف أحـد مـداه) [1]

فمـا أروع الإيمـان عندمـا يكـون شـاطئ الأمـان الذي نلجـأ إليه عند اشـتداد هبـوب ريـاح الفتن، فيعصمنا من الجـزع واليأس، ويمدنا بالصبـر والأمل، ويمنحنا الثبـات واليقين!

استعلاء الإيمان:

إن الإيمـان الـذي يرتكـز علـى قاعـدة صلبة من معرفة راسـخة باللـه، يتحوّل إلـى عنصـر قـوّةٍ يدفـع صاحبـه إلى الاسـتعلاء علـى كلّ عوامـل الضعـف والخوف والحـزن، ويدعـوه إلـى الإحسـاس بالقـوّة والفـرح الروحـي بالألـم والتضحيـة فـي طريـق الجهـاد ﴿وَلاَ تَهِنُـوا وَلاَ تَحْزَنُـوا وَأَنتُـمُ الأَعْلَـوْنَ إِن كُنتُـم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمـران: 139).

ولقـد تأملـت فـي كتـاب ربـي أبحـث عـن نمـوذج لاسـتعلاء الإيمـان فـي مواجهـة الفتـن والمحـن، فمـا وجـدت أروع مـن موقـف سـحرة فرعـون عندمـا أشـرقت أنـوار الإيمـان فـي قلوبهـم، فوقفـوا في تحـدٍّ وثبـات ورباطة جـأش، أمام بطـش فرعـون وجبروتـه وطغيانـه.

قـال اللـه - عـز وجـل -: ﴿فَأُلْقِـيَ السَّـحَرَةُ سُـجَّدًا قَالُـوا آمَنَّـا بِـرَبِّ هَـارُونَ وَمُوسَـى {20/70} قَـالَ آمَنتُـمْ لَـهُ قَبْـلَ أَنْ آذَنَ لَكُـمْ إِنَّـهُ لَكَبِيرُكُـمُ الَّـذِي عَلَّمَكُـمُ السِّـحْرَ فَلَأُقَطِّعَـنَّ أَيْدِيَكُـمْ وَأَرْجُلَكُـم مِّـنْ خِـلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُـمْ فِـي جُـذُوعِ النَّخْـلِ وَلَتَعْلَمُـنَّ أَيُّنَـا أَشَـدُّ عَذَابًـا وَأَبْقَـى {20/71}

(1) في ظلال القرآن ج5/ 2723

قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا {20/72} إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (طه 70 - 73)

في هذه اللحظة الحاسمة والفاصلة، وبعد ظهور دلائل الإيمان الواضحة وحججه القاطعة علم السحرة علمًا يقينيًا أن هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا للإيمان والخضوع لله ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ ولم يبالوا بتهديدات فرعون وطغيانه عندما توعدهم بالعذاب الأليم ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾

لم يهددهم فرعون بحبس أجسامهم، ولا بإخراجهم من أوطانهم، ولا بمصادرتهم في أموالهم، ولا بحرمانهم من وظائفهم، وإنما هددهم بما هو أشد من ذلك كله: التمثيل والتنكيل بهم، وجعلهم عبرة لغيرهم، فماذا كان جوابهم؟ ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا {20/72} إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾

الله أكبر.. ما أعظم الإيمان عندما يخالط المشاعر!، ويملك القلوب، ويأسر العقول، ويجعل من الإنسان الفقير الضعيف، قوة هائلة تتحدى الجبابرة، وتستخف بأعظم الأهوال وأشد الخطوب، فتقف صامدةً شامخةً في وجه الباطل، تتحدى الإغراءات والتهديدات، وتستهين بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب،

وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح!

ما أروع الإيمان الذي يسكب في القلب اليقين بأن الملك الحقيقي لله - سبحانه -، بيده وحده النفع والضر، والمنع والعطاء، والحياة والموت، وأن الطغاة– كل الطغاة - أقزام ضعفاء مهازيل لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا حياةً ولا موتًا.

وهكذا يصنع الإيمان!..

ميلاد جديد يمنح الفكر والعاطفة والمشاعر رؤيةً سديدةً للحياة، بعيدًا عن الاغترار بالزينة الخادعة والأبهة الفارغة؛ لتهتف في صدق وخشوع ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

يا له من مشهد عجيب، وتحول مذهل يستحق النظر والتأمل.. فبعد أن كانت هممهم مشدودة إلى المال ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (الشعراء: 41)، وكانت آمالهم منوطة بفرعون ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (الشعراء:44)، وبعدما ذاقوا حلاوة الإيمان كان جوابهم على التهديد والوعيد في ثبات ويقين: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾.

رفضوا كل الامتيازات التي كانوا يملكونها في حكم فرعون من مال وسطوة وجاه؛ لأنهم اختاروا الإيمان على الكفر، والهدى على الضلال، فلم تعد الدنيا تمثل لهم أي شيء، أمام الآخرة التي تمثل لهم كل شيء.

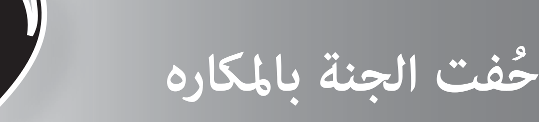
وما قيمة خسارة الحياة الدنيا بشهواتها وملذاتها في مقابل الخلود الأبدي في الجنان ونيل رضا الرحمن؟!

وهكـذا تغيـر الاتجـاه.. تغيـر المنطـق.. تغيـر السـلوك.. تغيـرت الألفـاظ.. أصبـح القـوم غيـر القـوم.. ومـا ذلـك إلا مـن صنـع الإيمان!

من ثمرات الابتلاء:

عندمـا تخبـو جـذوة الإيمـان فـي قلبـي، أجـد نفسـي جزوعًـا عنـد مـس الشـر، يأكلنـي الفـزع، ويمزقنـي الهلـع، تعصـف بـي الظنـون والأوهـام، وتفترسـني وسـاوس الشـيطان، فـلا أتصـور أن هنـاك فرجًـا ولا أتوقـع مخرجـاً، إلا أن تتداركنـي رحمـة اللـه - عـز وجـل -، فأعـود إلـى حصـن الإيمـان ألتمـس الحمايـة والرعايـة والطمأنينـة والأمـان.

الآن، فهمـت مـا قالـه أحـد الكتَّـاب: (الإيمـان ينبـوع ثـريٌّ (لا ينضـب)، يجـري فـي العـروق فـي سـاعات الرخـاء، ليـروي العطـش فـي سـاعة العسـرة).



(حُفَّت الجنة بالمكاره وأنت تكرهها، وحُفَّت النار بالشهوات وأنت تطلبها، فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء، إن صبّر نفسه على مضض (ألم وكره) الدواء اكتسب بالصبر عافية، وإن جزعت نفسه مما يلقى طالت به علة الضنا (المرض وسوء الحال)[1]

(يحيى بن معاذ - رحمه الله -)

---

(1) صفة الصفوة ابن الجوزي ج94/4

ثمن الجنة:

إن النجـاح فـي ميادين الحياة المختلفة يتطلـب مكابدة المشـاق ومعانقة التعـب، والصبـر علـى الحرمان، وتحمـل الآلام والأوجاع، ومفارقـة الأهل والأحباب. كل ذلـك مـن أجـل تحصيـل لـذة فانيـة أو مجد زائـل أو ارتقـاء في وظيفـة أو نيل شـهادة أو تحسـين دخـل معيشـي، فـإذا كانـت هـذه الإنجـازات رغـم قصـر فتـرة الاسـتمتاع بهـا تحتـاج إلـى هـذا الكبـد والعنـاء؛ فمـا بالكـم بالخلـود فـي الجنـان حيـث النعيـم المقيـم واللـذة الدائمة!

هـل يتوهـم أحدكـم أن يكـون الطريق إلـى الجنة محفوفًـا بالمتـع واللذائذ، تظللـه الأشـجار ذوات الأزهـار والثمار!

كلا. طريـق الجنة مليء بالعقبات والمشـقات والصعاب، محفوف بأشـواك الابتـلاء، فيـه القيـود والحـدود، فيـه مخالفـة النفـس، ومجانبـة الهـوى، والصبـر علـى التكاليـف والعبـادات، ومراغمـة وسـاوس الشـيطان، ومدافعـة مطامـع النفـس وشـهواتها، ومحاربـة رغبتهـا فـي الراحة والكسـل.

قـال اللـه - عـز وجـل -: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران:142)

إنها (التكاليف المستمرة المتنوعة التي لا تقف عند الجهاد في الميدان. فربما كان الجهاد في الميدان أخف تكاليفًا هذه الدعوة التي يطلب لها الصبر، ويختبر بها الإيمان. إنما هنالك المعاناة اليومية التي لا تنتهي: معاناة الاستقامة على أفق الإيمان، والاستقرار على مقتضياته في الشعور والسلوك، والصبر في أثناء ذلك على الضعف الإنساني:في النفس وفي الغير، ممن يتعامل معهم المؤمن في حياته اليومية.. والصبر على الفترات التي يستعلي فيها الباطل وينتفش، ويبدو كالمنتصر! والصبر على طول الطريق وبعد الشقة وكثرة العقبات. والصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها في زحمة الجهد والكرب والنضال، والصبر على أشياء كثيرة ليس الجهاد في الميدان إلا واحدًا منها، في الطريق المحفوف بالمكاره، طريق الجنة التي لا تنال بالأماني وبكلمات اللسان!) [1]

من أجل ذلك أخبرنا النبي - عليه الصلاة والسلام - بهذه الحقيقة الهامة؛ فقال:(حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ. وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ) [2]

قال الغزالي: (بَيِّنٌ بهذا الحديث أن طريق الجنة وعرٌ، وسبيل صعب كثير العقبات شديد المشقات، بعيد المسافات، عظيم الأفات، كثير العوائق والموانع، خفي المهالك والقواطع، غزير الأعداء والقطاع، عزيز الاتباع والأشياع، وهكذا يجب أن يكون) [3]

---

(1) في ظلال القرآن ج483/1

(2) رواه مسلم 2822

(3) فيض القدير للمناوي ج89/3

والمكاره يدخل فيها الاجتهاد في العبادات والمواظبة عليها، والصبر على مشاقها، وفطم النفس عن مألوفاتها. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّ رسول الله - ﷺ - قال: (لما خلق الله الجنة؛ قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب، فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب! وعزّتك لا يسمع بها أحدٌ إلّا دخلها، ثم حفها بالمكاره، ثم قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، فذهب، فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب، وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد، فلما خلق النار؛ قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء، فقال: أي رب، وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات، ثم قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، فذهب، فنظر إليها، فقال: أي رب، وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها) [1]

أخي،

إن للجنة ثمنًا يجب أن يُؤدى، وعطاءً يجب أن يُبذل، ومشقات تُقابل بالصبر، وشهوات تُقاوم بالمجاهدة، ونفس أمارة تواجه بالترويض والتزكية، وشيطان لحوح يحتاج إلي يقظة وانتباه ولجوء إلى حمى الملك - سبحانه -، فليست الجنَّة منحة مجانية يمنحها اللّه - تعالى - للكسالى والخاملين والعاطلين!!.. فهل دفعت الثمن؟

- ثمن الجنة.. هجر فراشك الوثير الدافئ، وقيامك لصلاة الفجر في خضوع وخشوع تبتغي رضا مولاك والقرب منه.

(1) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم كما في صحيح الجامع رقم 5210

- ثمـن الجنـة.. العـزم علـى التوقـف عـن معصيـة معينـة زينهـا لـك الشـيطان لسـنين طـوال بعدمـا أقنعـك بأنـه لا فـكاك لـك منهـا، رغبـةً فيمـا عنـد اللـه، وطمعًـا فـي جنتـه.
- ثمـن الجنـة.. كظـم غيظـك والعفـو عمـن ظلمـك والصفـح عمـن أسـاء إليـك، وقهـر رغبـات نفسـك التـي تهيجـك علـى التشـفي والثـأر والانتقـام.
- ثمـن الجنـة.. الصبر علـى فتنة انتفاخ الباطل وانتفاشـه وكثرة المؤيدين لـه، واتبـاع الحق رغم وعورة طريقه وقلة سـالكيه.

إنهـا الجنـة! ومـا أدراك مـا الجنـة! الجائـزة الكبـرى، والمكافـأة العظمـى التـي يمنحهـا الملـك - عـز وجـل - عبـاده الصابريـن؛ جـزاءً لمـا قدمـوا مـن عطاء وتضحيـات، ومـا لاقـوه مـن مشـقات وصعوبـات، ومـا عانـوه مـن مـرارة الحرمـان ابتغـاء مرضـاة الرحمـن.

وما أروع ما قاله الإمام ابن القيم - رحمه الله -:

(النعيـم لا يـدرك بالنعيـم، ومـن آثـر الراحـة فاتتـه الراحـة، وأنـه بحسـب ركـوب الأهـوال واحتمـال المشـاق تكـون الفرحـة واللـذة. فـلا فرحـة لمـن لا همّ لـه ولا لـذة لمـن لا صبـر لـه ولا نعيـم لمـن لا شـقاء لـه.. ولا راحـة لمـن لا تعـب لـه.. صبـر سـاعة خيـر من عذاب الأبـد.. وإذا تعـب العبد قليلًا اسـتراح طويـلًا) [1]

(1) مفتاح دار السعادة ص366

والله يدعو إلى دار السلام:

قال الله - عز وجل -: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام:127)، وقال سبحانه:﴿ وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (يونس: 25)

ما أجمل دعوة الرحمن لعباده - الذين صبروا على متاعب السفر في رحلتهم إلى الآخرة وتحملوا صعوباته وتجاوزوا منعطفاته - إلى جنته بوصفها (دَارِ ٱلسَّلَٰمِ).

وسميت الجنة بدار السلام لعدة وجوه:

1 - السَّلَامَةُ مِنْ جَمِيعِ الشَّوَائِبِ وَالْمَصَائِبِ وَالْمَعَايِبِ، وَالنَّقَائِصِ وَالْأَكْدَارِ، والْمُنَغِّصَاتِ وَالْكُرُوبِ وَالنَّكَبَاتِ.

2 - السلام تَحِيَّةُ اللهِ وَمَلَائِكَتِهِ لِأَهْلِهَا، وَتَحِيَّةُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ الدَّالَّةُ عَلَى تَحَابِّهِمْ وَتَوَادِّهِمْ.

3 - السَّلَامُ مِنْ أَسْمَائِهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَأُضِيفَتْ دَارُ النَّعِيمِ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهَا، وَهُوَ مَصْدَرٌ وُصِفَ بِهِ لِلْمُبَالَغَةِ كَالْعَدْلِ، وَيَدُلُّ عَلَى كَمَالِ التَّنْزِيهِ وَالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم.

فكما صبر المؤمنون في دنياهم على جميع المشقات والمقلقات والمزعجات، كافأهم الله بالجنة التي تخلو من كل ما يعكر صفوهم ويكدر سرورهم وفرحهم. ففي الجنة نودع الهموم والأحزان ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (فاطر:34).. ويزول

التعـب والنصـب ﴿لَا يَمَسُّـنَا فِيهَـا نَصَـبٌ وَلَا يَمَسُّـنَا فِيهَـا لُغُـوبٌ ﴾ (فاطـر 35).. ويختفـي الغـل والحسـد ﴿وَنَزَعْنَـا مَـا فِـي صُدُورِهِـم مِّـنْ غِـلٍّ إِخْوَانًـا عَلَـى سُـرُرٍ مُّتَقَابِلِيـنَ﴾ (الحجـر 47)، وتسـتقبلنا الملائكـة بالترحـاب والتكريـم ﴿ادْخُلُوهَـا بِسَـلَامٍ آمِنِيـنَ ﴾ (الحجر46) (بسـلام فـي أجسـادنا، فـلا أمـراض بعـد اليـوم.. لا حمـى ولا زكام، ولا ربـو ولا سـكري ولا ضغـط ولا جلطـات ولا سـكتات، ولا غيبوبـة، ولا ضعـف فـي البصـر أو عمـى.. بسـلام فـي أجسـادنا، فـلا إعاقـات ولا شـلل ولا إصابـات ولا كسـور ولا جـروح ولا حـروق ولا علـل ولا عيـوب.. بسـلام فـي أرواحنـا، فلـن تفـارق أجسـادنا السـاحرة، سـتظل ترفـرف فـي سـعادة بيـن جوانحنـا، فـلا قلـق ولا كآبـة ولا إحبـاط ولا ملـل، ولا يـأس ولا انكسـار ولا حـزن، ولا قتـل فقـد ذبـح المـوت.. بسـلام فـي قصورنـا وبيوتنـا وأكواخنـا ومزارعنـا وشـاليهاتنا ومنتجعاتنـا، فـلا لصـوص ولا عصابـات ولا مقتحميـن ولا متجسسـين علـى خصوصياتنـا.. بسـلام فـي مسـتقبلنا، فالقـادم أجمـل مـن الحاضـر، ولـن نخشـى بعـد اليـوم جفافًـا أو قحطًـا أو زلازل أو براكيـن أو فياضانـاتٍ أو حروبًـا تـأكل الأخضـر واليابـس.. بسـلام فـي طعامنـا وشـرابنا، فلـن نعانـي مـن الجـوع والعطـش أو الغصـص أو المـرارة والتسـمم، وليـس فـي قوائـم الطعـام والشـراب شـيئًا محرمًـا أو ممنوعًـا، أو مسـموحًا بـه لأحـد دون أحـد، أو لطبقـة دون طبقـة.. بسـلام فـي أجوائنـا، فلـن نعـرف الحـر المزعـج أو البـرد القـارس، أو الغبـار المـؤذي، أو الرطوبـة الخانقـة أو الريـح أو العواصـف والأعاصيـر المدمـرة)[1]

---

(1) الجنة حين أتمنى ص 11 - 13 بتصرف – د. محمد الصوياني

فتخيـل نفسـك وأنـت تتقلـب في هـذا النعيم (وقـد زحزحت عنـك كل آفة، وأزيـل عنـك كل نقـص، وطهـرت مـن كل دنـس، وأمنـت فيهـا الفـراق؛ لأن اللـه - تعالـى - قـد قصـد قلبـك فقـال للهمـوم: زولـي عنـه فـلا تخطـري لـه أبـدًا، وقـال للسـرور: تمكـن فيـه فـلا تـزول منـه أبـدًا، وقـال للأسـقام: زولـي عـن جسـمه فـلا تعرضـي لـه أبـدًا، وقـال للصحـة: أقيمـي فـي بدنه فـلا تبرحي أبـدًا، وذبـح الموت وأنـت تنظـر إليـه، فأمنـت المـوت فـلا تخافـه أبـدًا، ولا زوال ترتقبـه، ولا سـقم يعتريـك أبـدًا، ولا مـوت يعـرض لـك أبدًا، قـد منحت جـوار ربك، لا تخاف سـخطه أبـدًا بعـد رضاه عنـك) [1]

أخي،

إن غمسـة واحـدة فـي الجنـة تُنسـيك كل البـؤس والهـم والشـقاء والحـزن، الـذي عشـته فـي الحيـاة الدنيـا.. فمـا بالـك بالخلـود الأبـدي؟!

فعـن أنـس بـن مالـك، قـال: قال رسـول اللـه - عليه الصلاة والسـلام-: (يُؤْتَى بِأَشَـدِّ النَّـاسِ بُؤْسًـا فِـي الدُّنْيَـا، مِـنْ أَهْـلِ الْجَنَّـةِ. فَيُصْبَـغُ صَبْغَةً فِـي الْجَنَّـةِ. فَيُقَالُ لَـهُ: يَـا ابْـنَ آدَمَ، هَـلْ رَأَيْـتَ بُؤْسًـا قَـطُّ؟. هَلْ مَـرَّ بِكَ شِـدَّةٌ قَـطُّ؟ فَيَقُـولُ: لَا وَاللَّهِ، يَـا رَبِّ! مَـا مَـرَّ بِـي بُؤْسٌ قَـطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِـدَّةً قَـطُّ) [2]

قـل لـي بربـك.. أيـن الهمـوم الماضيـة، والآلام المضنيـة، والمحـن العاتية؟!، ذهبـت إلـى غيـر رجعـة، وأصبحـت ذكريـات تذكـر المهمومـين بقيمـة الصبـر وفضيلـة المجاهـدة.

---

(1) التوهم ص 128 - 129 - الحارث المحاسبي

(2) رواه مسلم 2807

فإذا كان المصيرُ إلى هذه الدارِ؛ فلتخفَّف المصائبَ على المصابين، ولتَقَرَّ عيونْ المنكوبين، ولتفرح قلوبُ المعدمين.

من ثمرات الابتلاء:

كلما أصاب قلبي نوبات الوهن أو غلبني اليأس والفتور؛ ذكَّرت نفسي بالخلود في الجنان، وسكنى القصور، وملاطفة الحور، وما أعده الله- تعالى - للصالحين من النعيم والسرور.. (ومتى تخايل (العبد) دوام اللذة في الجنة من غير منغص ولا قاطع، هان عليه كل بلاء وشدة)[1].

(1) ما بين القوسين من كلام الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - في كتاب (أعذب الخواطر مختصر صيد الخاطر ص150)



وعندها يسطع شعاع الإخلاص

(الإخلاص يسطع شعاعه في النفس، أشد ما يكون تألقًا في الشدائد الحرجة، إن الإنسان عندها ينسلخ من أهوائه، ويتبرأ من أخطائه، ويقف في ساحة الله أوابًا، يرجو رحمته ويخاف عذابه)[1]

(الشيخ محمد الغزالي)

---

(1) خلق المسلم ص 66

يقظة الفطرة في الشدائد:

إن الإيمـان باللـه - تعالـى - شـعور فطـري ينبـع مـن داخل النفـس يجده الإنسـان فـي نفسـه بغيـر تعلـم ولا تلقين ولا اكتسـاب (فِطْـرَةَ اللـهِ الَّتِـي فَطَرَ النَّـاسَ عَلَيْهَـا لَا تَبْدِيـلَ لِخَلْـقِ اللـهِ ...) (فاطر30). غير أن الإنسـان قـد يخدعه إلف النعـم وطـول الرخـاء، فيقـوده ذلـك إلـى الغفلـة والركون إلـى النفس ونسـيان المنعـم - عـز وجـل -، وربمـا إلـي البطـر والغـرور والتكبر.

هنـا يسـلط اللـه - تعالـى - عليـه سـهام البـلاء وسـياط الشـدة؛ لعلـه يتذكـر هـذه الحقيقـة المغروسـة فـي فطرتـه، فيعـود إلـى مـولاه ضارعًـا خاشـعًا يسـجد فـي محـراب الإخـلاص، وعندهـا تنقشـع سـحب الغفلة وتـزول أوهام الاغتـرار، فلا يـرى القلب سـوى معبـوده (سـبحانه) الحقيقي الذي بيـده النفع والضـر، والعطاء والمنـع، بعدمـا تيقـن أن كل مـا سـواه وهـم خـادع وسـراب زائل.

قـال اللـه - عـز وجل -: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَـانَ الضُّـرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِـدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّـا كَشَـفْنَا عَنْـهُ ضُـرَّهُ مَـرَّ كَأَن لَّـمْ يَدْعُنَـا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّـهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْـرِفِينَ مَـا كَانُواْ يَعْمَلُـونَ﴾ (يونس:12) [1]

---

(1) وقد تكرر هذا المعنى في آيات كثيرة، انظر على سبيل المثال: الأنعام (63)، الإسراء (67)، فصلت(49 - 50)، الروم (33 - 34)

إن طبيعة الإنسـان أن يعرف ربه سـاعة الشـدة، وأن يلجأ إليه عندما تسـتحكم أزماتـه، وتحصـره الشـدائد، وتأخـذ بخناقـه الكربـات، فيلجـأ إلـى مولاه في خشـوعٍ وخضـوعٍ، فـي كل حالاتـه، فـي إلحاحٍ مسـتمر لا يتـرك أيَّة فرصةٍ، فهـو يدعو فى كل حـال يكـون عليـه: لجنبـه، أو قاعدًا، أو قائمًـا. فهو من لهفته وانحـلال عزيمته يدعو بـكل لسـان، ويسـتصرخ بـكل جارحـة طالبًـا النجـدة والغـوث. وهـذا أمر حسـن أن يعـرف الإنسـان ربـه فى الشـدة ويفزع إليه، ويطـرق باب فضله وإحسـانه، ويدعوه لكشـف الضـر عنـه، فذلـك مـن إيمان المؤمـن بربه وثقتـه فيه وطمعه فـي رحمته. وأحسـن مـن ذلـك، أن يعـرف الإنسـان ربـه في الرخـاء، ويسـبح بحمده ويشـكر له ويذكـر نعمـه وإحسـانه إليـه، ولكن أن ينسـى المرء فضـل مولاه ويجحـد كرمه بعد زوال الكـرب وانكشـاف الضيـق ورفـع البلـوى، فيعود إلى سـيرته الأولى مـن الغفلة وإتبـاع الهـوى والانغمـاس فـي الشـهوات، وكأن ضـرًّا لـم يكـن قـد مسّـه، وكأن حالًا مـن الذّلـة والاسـتكانة لـم تكـن قـد لبسـته، وكأن رحمة السـماء لـم تمدّ يدهـا إليه وتسـتنقذه مـن الهلاك المطبـق عليه!

وقـال - سـبحانه - فـي موضـع آخـر: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لله أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ (الزمر: 8)

ومـا أجمـل تعليـق الإمـام القشـيري - رحمـه اللـه - وهـو يصـور صـورة هذا الإنسـان الجاحد:

(إذا مسّــه ضــرّ خشــع وخضـع، وإلــى قربــه فــزع، وتملّــق بيــن يديــه وتضــرع. فــإذا أزال عنــه ضــرّه، وكفــاه أمــره، وأصلــح شــغله نســي مــا كان

يدعو إليه من قبل، وجعل لله أندادًا، فيعود إلى رأس كفرانه، وينهمك في كبائر عصيانه، ويشرك بمعبوده. هذه صفته... فسحقًا له وبعدًا، ولسوف يلقى عذابًا وخزيًا) [1]

عجبًا أيها العبد الجاحد!..

فى الشدائد يجتمع رأيك، وتتفتح ملكاتك فترى الواقع على حقيقته. فإذا زالت الشدة، وانفسح الأمل، أعطيت زمامك لهواك، وأسلمت وجودك لشيطانك..

ألا من وقفةٍ صادقةٍ مع نفسك تذكر فيها ضعفك وعجزك وفقرك وقلة حيلتك ؟!

لماذا لا نظل نلتجئ إلى الله - عز وجل - في الرخاء كما نلتجئ إليه في الشدة؟!

لماذا يفر أحدنا إلى الله عندما تطوف به محنة، فقر، مرض، فإذا استجاب الله - عز وجل - دعاءه، وفرَّجَ عنه كربه؛ تنظر إليه وإذا هو يعود إلى سابق غفلته!؟

هل أخذت أيها الإنسان ضمانًا بانتهاء المتاعب إلى الأبد؟، هل اطمأننت إلى أنك لن تقع فى الفخ مرة أخرى؟

أتظن أن يد الله الرحيمة التي خلصتك من البلاء، وأنقذتك من المرض لا تستطيع أن تعود فتبتليك بشرٍّ من ذلك البلاء الذي أصابك؟ ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن

(1) لطائف الإشارات ج271/5

يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً {17/68} أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ (الإسراء 68 - 69)

الإخلاص مفتاح النجاة:

وكل واحد منا في تجارب حياته يتذكر دور الشدائد والآلام في إزالة حجب الغفلة، وسطوع شعاع الإخلاص؛ ليدمر جراثيم الرياء، وينسف كل شبهة تعلق المخلوق الضعيف بغير خالقه القوي القادر.

هل تذكر عندما غلقت في وجهك الأبواب، وضاقت بك السبل، فشعرت برغبة شديدة للجوء إلى مولاك - بعد طول غفلة - بعدما تيقنت أنه لا عاصم لك سواه، ولا مغيث لك إلا إياه؟!

هل استشعرت ذلك وأنت تؤدي امتحانًا من الامتحانات، أو أصابك مرضًا يئست من شفائه، أو مرت بك كارثة أعجزتك، أو مصيبة أقعدتك، فأدركت حينها أنه لا خلاص لك من المحنة، ولا نجاة لك من الكرب، إلا بالالتجاء إلى الله وحده القاهر فوق عباده؟!

ألا ما أشقى المرء وأتعسه إذا كانت لحظات الشدة وأوقات المحنة لا ترده إلى ربه خاشعًا منكسًرا!، وما أشد مصيبة قلبه إذ تنزل عليه سياط البلاء، فيظل سادرًا (تائهًا) في غيِّه، هائمًا وراء شهواته، متقلبًا في فراش غفلاته، يستوي عنده الشدة والرخاء، لا يستشعر هذه الوخزة الموقظة، التي تنبه القلوب الحية للاستجابة لنداء الفطرة والعودة إلى حصن الإخلاص!

والإخـلاص يمنـح صاحبـه سـكينة نفسـية، وطمأنينـة قلبيـة، تجعلـه منشـرح الصـدر، مسـتريح الفـؤاد، فقـد اجتمع قلبـه على غايـة واحدة، هي رضـا الله - عز وجـل -، وانحصـرت همومـه فـي هـم واحد، هـو سـلوك الطريق الـذي يوصل إلى مرضاتـه، ولا ريـب أن وضـوح الغايـة، واسـتقامة الطريـق إليهـا يريـح الإنسـان من البلبلـة والاضطـراب بيـن الاتجاهـات، وتنـازع الرغبات، وتعدد السـبل.

فـإذا فقـدت بوصلـة (الإخلاص)، تشـتت جهدك، وتبـددت طاقتـك، وتمزقت قـواك، فـلا تعـرف للراحـة سـبيلًا، ولا للسـكينة طريقًـا، فتصبـح مـوزّع المشـاعر، ممـزّق الكيـان، لا تـدري مـاذا تأخـذ وماذا تـدع؟، ولا تسـتطيع أن تقـرر أتتقدم أم تتأخـر؟، إنـك عندئـذ كالريشـة فـى مهـبّ ريـح هوجاء!

من ثمرات الابتلاء:

مـا أجمـل الألـم إذا كان يقود صاحبه إلـى حصن الإخلاص!، ومـا أروع الشـدائد إذا كانـت السـبيل لعـودة الحيـاة إلـى القلـب ونجاتـه مـن مسـتنقع الغفلـة والاغترار!



وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ

(بين صبر يقوي الإرادة ويحصنها من الوهن والفتور، وصلاة تسمو بالروح وتعرج بها في مدارج الأنس لتحلق في عوالم النور؛ يمتلك القلب الطاقة الإيجابية التي تستعلي على المشاعر السلبية التي تتكاثر عند اشتداد الأهوال وتتابع الكروب)

زاد على طريق الابتلاء:

إن الإنسـان فـي معتـرك الحيـاة تتناوشـه سـهام الشـدائد، وتتابـع عليـه التكاليـف والمشـقات، وتحيـط بـه المتاعـب والتحديـات، ومـا لـم يملـك المـرء الـزاد الـذي يعينـه علـى تحمـل المـكاره والصعـاب، ومدافعـة المشـاعر السـلبية التـي تغـري المـرء بالجـزع والهلع، وتبث فيـه روح العجز والاستسـلام، خارت قواه ووهـن عزمـه وذاب احتمالـه، وثقلـت عليـه الأعبـاء؛ لـذا أرشـد اللـه عبـاده إلـى زاديـن عظيميـن بهمـا يسـتعذبون مشـاق التكاليـف، وبهمـا تهون لديهـم مصائب الدنيـا، وتـذل أمامهـم الصعـاب، وبهما يسـتعلي المرء على هجمـات القلق ولذعة الألم.

قـال اللـه - عـز وجل -: ﴿ يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْـتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللـهَ مَـعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة:153) [1]

---

(1) ويدرك المتدبر أن ذكر الصبر مقدم على ذكر الصلاة في هذه الآية، ذلكم أن الإنسان في هذه الحياة ما هو إلا مسافر يجد في سيره إلى الآخرة وهو في سفره يلقى من وعثاء الطريق ما يشق عليه وما يحتاج معه إلى صبر، والصبر في الإنسان له حد ينتهي إليه قد يقصر عن احتمال المشقة كلها والمصائب جميعها، فلابد له من الاستعانة بأمر آخر يتمم ما قصر عنه حد الصبر في الإنسان، فكانت الصلاة هي المتممة لذلك.

ولهذا كان رسول الله - عليه الصلاة والسلام - إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة، وكان يقول لبلال - رضي الله عنه - (أقم الصلاة أرحنا بها)، فمع عظم صبره - عليه الصلاة والسلام - وقوته وتجلده إلا أنه كان لا يجد راحته إلى في الصلاة، بل كان يقول (وجعلت قرة عيني في الصلاة) (الصلاة في القرآن مفهومها وفقهها ص41 - 42 د. فهد الرومي)

والاستعانة بالصبر والصلاة ليست أمرًا يسيرًا هينًا، ولكنها أمر عظيم خطير، لا تتلقاها إلا النفوس ذات العزيمة الحازمة والإرادة القوية، التي لا تضطرب عند وقوع الشدائد والأهوال، ولا تتزلزل وتنهار عند مس البلاء.. ولذا قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (البقرة:45)

والصبر ضبط النفس وسيطرة الإرادة على الهوى، وسيطرة العقل على الشهوة، فإنه إذا سيطرت الإرادة والعقل والفكر المستقيم؛ انقمعت الشهوات، وإذا انقمعت؛ استقامت النفس (والصبر مع أنه مطلوب في كل حال، فإن الحاجة إليه أشد والطلب له أقوى وألزم حين يواجه المرء ما يكره من عواقب الأمور، فهنا يكون الإنسان أمام امتحان قاس لإيمانه بربه وتوكله عليه وتفويض أمره كله إليه. فإن لم يجد من الصبر ما يمسك عليه إيمانه ويقيم وجهه على الرضا والتسليم للّه؛ استبدّ به الجزع وقتله الهمّ، ووقعت بينه وبين ربه غيوم من التهم والظنون وهذه أول مزالق الشرك والكفر باللّه)[1]

(وحين يطول الأمد، ويشق الجهد، قد يضعف الصبر، أو ينفد، إذا لم يكن هناك زاد ومدد. ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر؛ فهي المعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد. المعين الذي يجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع. ثم يضيف إلى الصبر، الرضى والبشاشة، والطمأنينة، والثقة، واليقين) [2]

---

(1) التفسير القرآني للقرآن ج11 /573 - د. عبد الكريم الخطيب

(2) في ظلال القرآن ج1 / 141 - 142

فالصَّلاةِ هـي معـراج الـروح إلـى اللّـه، فهـي التـي تفتـح القلـب علـى ربّه، وتشـدّه إليـه وتربطـه بـه، حتـى يحـسّ أنَّ اللّـه معـه فـي كلّ مواقفـه، فـلا يخـاف، ولا يحـزن، ولا يضعـف، ولا يتزلـزل. وهكـذا يعطـي الصبـر للصـلاة قـوّة الإرادة، وتعطيـه الصـلاة قـوّة الـروح، فيتكامـلان فـي حمايـة المـرء من السـقوط والانهيار في مسـتنقع القلـق والإحباط واليـأس. وقـد ختـم اللّـه الآية بقوله: (إِنَّ اللــهَ مَـعَ الصَّابِرِينَ) ؛ ليؤكد لهـم أنَّ اللّه لا يترك الصابريـن وحدهـم فـي مواجهـة التحدّيات والأهـوال والعقبات، بل يقـف معهم يؤيدهـم، ويثبتهـم، ويقويهـم، ويؤنسـهم، ولا يدعهم يقطعون الطريق وحدهـم، ولا يتركهم لطاقتهم المحـدودة، وقوتهـم الضعيفـة، إنمـا يمدهـم حيـن ينفـد زادهـم، ويجـدد عزيمتهـم حين تطـول بهـم الطريـق. وكفـى بمعيـة اللـه - تعالى - عونًـا للعبد الصابر، وبشـارة لـه بالفرج والأجـر العظيم.

وقـد صـرح القـرآن الكريـم بمـا للصبـر والصـلاة من أثـر كبير فـي تهذيب النفـوس وتطهيرهـا مـن بواعـث اليـأس والهلـع عنـد حلـول المصيبـة، ومـن بواعـث الطغيـان والبطـر عنـد ورود النعـم، فقـال تعالـى فـي الصبـر: ﴿وَلَئِـنْ أَذَقْنَـا الإِنْسَـانَ مِنَّـا رَحْمَـةً ثُـمَّ نَزَعْنَاهَـا مِنْـهُ إِنَّـهُ لَيَئُـوسٌ كَفُـورٌ {11/9} وَلَئِـنْ أَذَقْنَـاهُ نَعْمَـاء بَعْـدَ ضَـرَّاء مَسَّـتْهُ لَيَقُولَـنَّ ذَهَـبَ السَّـيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَـرِحٌ فَخُـورٌ {11/10} إِلاَّ الَّذِيـنَ صَبَـرُواْ وَعَمِلُـواْ الصَّالِحَـاتِ أُوْلَئِـكَ لَهُـم مَّغْفِـرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيـرٌ ﴾ (هـود 9 - 11) وقال فـي الصـلاة: ﴿إِنَّ الْإِنسَـانَ خُلِـقَ هَلُوعًـا {70/ 19} إِذَا مَسَّـهُ الشَّـرُّ جَزُوعًـا {70/ 20} وَإِذَا مَسَّـهُ الْخَيْـرُ مَنُوعًـا {70/ 21} إِلَّا الْمُصَلِّيـنَ {70/ 22} الَّذِيـنَ هُـمْ عَلَـى صَلَاتِهِـمْ دَائِمُـونَ ﴾ (سـورة المعـارج)

وبشر الصابرين:

إن الـذي يلقـى أحـداث الحيـاة ومصائبهـا بالصبـر، ويواجههـا بالتسـليم والرضـا، عـن يقيـن وإيمـان بـأن مـا وقـع إنمـا هـو بقضـاء اللّـه وقـدره؛ فـإن ذلـك يهـوّن عليه مـن وقع المصائـب وإن عظمـت، ويمـدّه بمعيـن عظيم مـن الصبر والاحتمـال، ويفتح له بابًا واسـعًا مـن الأمـل والرجـاء فيمـا هـو خير عنـد اللّـه وأبقى.

قـال اللـه - عـز وجـل -: ﴿وَبَشِّـرِ الصَّابِرِيـنَ {2/155} الَّذِيـنَ إِذَا أَصَابَتْهُـم مُّصِيبَةٌ قَالُـواْ إِنَّـا للـهِ وَإِنَّـا إِلَيْـهِ رَاجِعـونَ {2/156} أُولَئِـكَ عَلَيْهِـمْ صَلَـوَاتٌ مِّـن رَّبِّهِـمْ وَرَحْمَـةٌ وَأُولَئِـكَ هُـمُ الْمُهْتَـدُونَ ﴾ (البقـرة:155) والصـلاة مـن اللـه - تعالـى - علـى العبـد: الثناء والتشـريف والتكريـم والرحمـة والعطـف والعفـو وإغـداق النعم ظاهـرة وباطنة. وَأمـا الرحمـة فهـي مـا يكـون له في نَفْـسِ الْمُصيبـة من حُسـن العزاء، وبَـرَدِ الرضا والتسـليم للقضاء.

﴿وَأُولَئِـكَ هُـمُ الْمُهْتَـدُونَ ﴾ أَيْ: إِلَـى مَـا يَنْبَغِـي عَمَلُـهُ فِـي أَوْقَـاتِ الْمَصَائِـبِ وَالشَّـدَائِدِ إِذْ لَا يَسْـتَحْوِذُ الْجَزَعُ عَلَى نُفُوسِهِمْ، وَلَا يَذْهَـبُ الْبَلَاءُ بِالْأَمَلِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، فَيَكُونُونَ هُمُ الْفَائِزونَ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالرَّاحَةِ فِيهَا، الْمُسْـتَعِدُّونَ لِسَـعَادَةِ الْآخِرَةِ بِعُلُوِّ النَّفْـسِ وَتَزْكِيَتِهَـا بِمَكَارِمِ الْأَخْـلَاقِ وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ. والعارفون يـرون البلايا والمحن والفاقـات وسـائل العطايـا والمنـن ورفـع الدرجـات، ويعتقـدون أنهـا أقـل برهـان يعـرب بـه المحـب عن حسـن اسـتعداده للقرب. وهـذا بخلاف الذي لـم يهتد إلى

الإيمان والتسليم، فإنه قد خلّيَ بينه وبين مصيبته، يتجرع غصصها، ويمضغ جمرها، ويبيت على أشواكها، دون أن يجد للصبر طريقًا، أو يرى للعزاء وجهًا.

والصبر كما عرفه الإمام ابن القيم - رحمه الله -: (خلق كسبي يتخلق به العبد، وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكي، فيحبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والجوراح عما لا ينبغي فعله، وهو ثبات النفس على الأحكام القدرية والشرعية) [1]

معينات على طريق الصبر:

والصبر على المصيبة - كما ذكر الإمام ابن القيم - ينشأُ من أسباب عديدة: [2]

1 - شهود جزائها وثوابها.. وأن يعلم أنَّ فوت ثواب الصبر والتسليم، وهو الصلاةُ والرحمة والهداية التى ضمِنَها الله - تعالى - على الصبر والاسترجاع؛ أعظمُ مِن المصيبة فى الحقيقة.

2 - شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: (لا يزال البلاء

(1) الروح ص677

(2) راجع (تقريب طريق الهجرتين ص 389 - 391)، وكتاب (زاد المعاد ج4 /189 - 196) ففيهما كلام نفيس وحكم قيمة.

بالمؤمــن والمؤمنــة فــى جســده ونفســه ومالــه وولــده، حتــى يلقــى اللــه ومــا عليــه مــن خطيئــة) [1]

3 - شـهود القـدر السـابق الجـاري بهـا، وأنها مقـدرة فـى أُم الكتـاب قبل أن يخلـق فـلا بـد منهـا، فجزعـه لا يزيـده إلا بلاءً.

4 - أن يعلـم أن اللـه - تعالـى - قـد ارتضاهـا لـه واختـاره وقسـمها، وأن العبوديـة تقتضـي رضـاه بمـا رضـي لـه بـه سـيده ومـولاه، فإن لـم يوف قـدر المقـام حقـه فهو لضعفـه، فلينزل إلى مقـام الصبر عليهـا، فإن نزل عنـه نـزل إلـى مقـام الظلـم، وتعـدى الحق.

5 - أن يعلـم أن هـذه المصيبـة هـى دواءٌ نافـع سـاقه إليـه الطبيـب العليـم بمصلحتـه الرحيم به، فليصبر على تجرعه، ولا يتقيأْه بتسـخطه وشـكواه فيذهـب نفعـه باطـلًا. وأن فـي عُقبـى هذا الـدواءِ مـن الشـفاءِ والعافية والصحـة وزوال الأَلـم، مـا لـم يحصـل بدونه، فـإذا طالعت نفسـه كراهة هـذا الـدواء ومرارتـه؛ فلينظـر إلـى عاقبتـه وحسـن تأْثيـره. قـال اللـه - تعالـى -: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 19)

6 - أن يُطفـئَ نـارَ مصيبتـه ببـرد التأسِّـي بأهـل المصائـب، ولينظـر يَمْنـةً، فهـل يـرى إلا مِحنـةً؟ ثـم ليعطـف يَسْـرةً، فهـل يـرى إلا حسـرةً؟، وأنـه لـو فتَّـش العالَـم لـم يـر فيهـم إلا مبتلًـى، إمـا

(1) رواه أحمد (2/ 559) والترمذي (2399) وقال: حسن صحيح

بفـوات محبـوب، أو حصـول مكـروه، وأنَّ شـرورَ الدنيـا أحـلامُ نـوم أو كظـلٍّ زائـلٍ، إن أضحكـتْ قليـلًا، أبكـتْ كثيـرًا، وإن سَـرَّتْ يومًـا، سـاءتْ دهـرًا، وإن مَتَّعـتْ قليـلًا، منعـت طويـلًا، ومـا مـلأت دارًا خيـرةً إلا ملأتهـا عَبْـرة، ولا سـرَّته بيـومِ سـرور إلا خبـأتْ لـه يـومَ شـرور.

7 - أن يعلـم أنَّ الجَـزَعَ يُشـمت عـدوه، ويسـوء صديقـه، ويُغضـب ربـه، ويَسـرُّ شـيطانه، ويُحبـط أجـره، ويُضعـف نفسـه، وإذا صبـرَ واحتسـب أنضى(أتعـب وأضعـف) شـيطانه، وردَّه خاسـئًا، وأرضـى ربـه، وسـرَّ صديقـه، وسـاء عـدوه، وحمـل عن إخوانـه، وعزَّاهم هـو قبـل أن يُعَزُّوه، فهـذا هـو الثبـاتُ والكمـال الأعظـم، لا لطـمُ الخـدودِ، وشـقُّ الجيـوب، والدعـاءُ بالوَيْـل والثُّبـور، والسـخَطُ علـى المقـدور.

8 - أن يعلـم أنَّ الـذي ابتـلاه بهـا أحكـمُ الحاكميـن، وأرحـمُ الراحميـن، وأنه سـبحانه لـم يُرسـل إليـه البـلاءَ ليُهلكـه بـه، ولا ليُعذبـه بـه، ولا ليَجْتاحَه، وإنمـا افتقـده بـه؛ ليمتحن صبـره ورضاه عنـه وإيمانه، وليسـمع تضرُّعه وابتهالَـه، وليـراه طريحًـا ببابـه، لائـذًا بجنابه، مكسـورَ القلب بيـن يديه، رافعًـا قصـصَ الشـكوى إليه.

إني رأيـت وفي الأيـام تجربـة ... للصبـر عاقبـة محمـودة الأثـر
وقـل مـن جـد في أمـر يحاولـه ... واسـتصحب الصبـر إلا فـاز بالظفـر

الصلاة.. مداد الروح:

إن المـرء يحتـاج حاجـةً مُلِحَّـةً إلـى مـا ينفِّـس عـن مشـاعره، ويخفِّف مـن لأوائه ومصائبـه، ويبعـث فـي نفسـه الطمأنينـة القلبيـة، والراحـة النفسـية، بعيـدًا عـن العُقَد والاكتئـاب، والقلـق والاضطـراب. وفـي الاتصـال باللـه العلي الكبيـر قوة للنفـس، ومدد للعزيمـة، وطمأنينـة للـروح، ولهـذا جعـل اللـه الصـلاة سـلاحًا للمؤمن يسـتعين بها في معركـة الحيـاة، ويواجـه بهـا كوارثها وآلامهـا.. (وإذا واظب المصلي على هـذه المناجاة، خمـس مـرات فـى اليـوم والليلـة، تيقظـت قـواه الروحيـة، وأحـس بـأن اللـه - تعالـى - يمـده بالقـوة، والعـون، وأنـه - سـبحانه - معـه لا يتخلـى عنـه، فتقوى عزيمته، وتشـتد إرادتـه، ويمضـي إلـى غايتـه دون تـردد أو ضعـف مهمـا اعترضتـه الصعـاب، أو واجهته العقبـات. ولـو قـدر أنـه لـم يبلـغ ما يريـد؛ فإنه لا يحـزن، ولا ييـأس، بل يعيـد المحاولة مـن جديـد، واثقًـا باللـه، متـوكلًا عليـه. هـذا من جانـب.. ومن جانـب آخر، فـإن الصلاة انتـزاع للنفـس مـن ماديـات الحيـاة وآلامهـا، وتوجيـه لهـا إلـى اللـه بالذكـر، والدعـاء، والضراعـة، والخضـوع لكبريائـه وعظمته)[1]

ولعلـك تسـأل: ولكنـي أصلـي ولا أستشـعر فـي أوقـات الشـدائد والملمـات بـأن الصـلاة هـي الملجـأ الآمـن والحصـن العاصـم مـن القلـق والاضطـراب!

أقـول لـك بـأن الصـلاة التـي تمـد العبـد بالطمأنينـة والسـكينة، هـي التـي يسـتحضر فيهـا القلـب عظمـة اللّـه؛ حيـث يكـون الإنسـان فـي صلاتـه فـي حـال

(1) إسلامنا ص 116– السيد سابق

مـن الخشـوع والخضـوع والتذلـل بيـن يـدي اللّـه، لمـا يمـلأ قلبـه مـن جـلال اللّـه وعظمتـه، وهـذا هـو الـذي يجعـل للصـلاة ثمـرًا طيبًـا مبـاركًا، يـذوق الإنسـان منـه حـلاوة الإيمـان، ويسـتروح منه أنسـام التقوى، أمـا الصلاة التي لا يحضرهـا ذكر اللّه، ولا يغشـاها الخشـوع والرهـب، ولا تظللهـا سـكينة النفـس وطمأنينـة القلـب؛ هـي صـلاة قليلـة الثمـر، ضئيلـة الأثر.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله -:

(وَلَيْسَـتْ (الصـلاة) هِـيَ الصُّـورَةُ الْمَعْهُـودَةُ مِـنَ الْقِيَـامِ وَالرُّكُـوعِ وَالسُّـجُودِ وَالتِّـلَاوَةِ بِاللِّسَـانِ خَاصَّـةً، الَّتِـي يَسْـهُلُ عَلَـى كُلِّ صَبِـيٍّ مُمَيِّـزٍ أَنْ يَتَعَوَّدَهَـا، وَالَّتِـي نُشَـاهِدُ مِـنَ الْمُعْتَادِيـنَ لَهَـا الْإِصْـرَارَ عَلَـى الْفَوَاحِـشِ وَالْمُنْكَـرَاتِ، وَاجْتِـرَاحِ الْآثَـامِ وَالسَّـيِّئَاتِ، وَأَيُّ قِيمَـةٍ لِتِلْـكَ الْحَـرَكَاتِ الْخَفِيفَـةِ فِـي نَفْسِـهَا حَتَّـى يَصِفَهَـا رَبُّ الْعِـزَّةِ وَالْجَـلَالِ بِالْكِبَـرِ إِلَّا عَلَـى الْخَاشِـعِينَ، إِنَّمَـا جُعِلَـتْ تِلْـكَ الْحَـرَكَاتُ وَالْأَقْـوَالُ صُـورَةً لِلصَّـلَاةِ لِتَكُـونَ وَسِـيلَةً؛ لِتَذْكِيـرِ الْغَافِلِيـنَ، وَتَنْبِيـهِ الذَّاهِلِيـنَ، وَدَافِعًـا يَدْفَـعُ الْمُصَلِّـي إِلَـى ذَلِـكَ التَّوَجُّـهِ الْمَقْصُـودِ الَّـذِي يَمْـلَأُ الْقَلْـبَ بِعَظَمَـةِ اللـهِ وَسُـلْطَانِهِ حَتَّـى يَسْتَسْـهِلَ فِـي سَـبِيلِهِ كُلَّ صَعْـبٍ، وَيَسْـتَخِفَّ بِـكُلِّ كَرْبٍ، وَيَسْـهُلَ عَلَيْـهِ عِنْدَ ذَلِـكَ احْتِمَـالُ كُلِّ بَـلَاءٍ، وَمُقَاوَمَـةُ كُلِّ عَنَـاءٍ، فَإِنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ شَـيْئًا يَعْتَرِضُ فِي سَـبِيلِهِ إِلَّا وَيَـرَى سَـيِّدَهُ وَمَـوْلَاهُ أَكْبَـرَ مِنْـهُ، فَهُـوَ لَا يَـزَالُ يَقُـولُ: اللـهُ أَكْبَـرُ، حَتَّـى لَا يَبْقَـى فِـي نَفْسِـهِ شَـيْءٌ كَبِيـرٌ، إِلَّا مَـا كَانَ مُرْضِيًـا لِلَّـهِ الْعَلِـيِّ الْكَبِيـرِ، الَّـذِي يَلْجَـأُ إِلَيْهِ فِي الْحَـوَادِثِ، وَيَفْـزَعُ إِلَيْـهِ عِنْـدَ الْكَـوَارِثِ) [1]

(1) تفسير المنار ج2 /36 - 37

ويحك يا صاح..

لديـك همـومٌ كالجبـال، ويضيق صدرك بالأحمـال الثقال، ثم تتأخر وتتكاسـل عـن إجابـة دعـوة مولاك في الصلاة؛ ليفيـض على قلبك نسـمات الأنـس ويمنحك السـكينة والرضا!

ألـك ملجـأ إلـى غيـره، أم لـك مفزع إلى سـواه، أم أن طول الغفلـة قد أصابك بالصمم فلم تسـمع نـداء مولاك؟!

من ثمرات الابتلاء:

مـا وجـدت بلسـمًا شـافيًا وعلاجًـا كافيًـا لمتاعـب الحيـاة ومشـاكلها اليوميـة؛ مثـل الصبـر والصـلاة. ففـي الصبـر تفويـض للملـك الواحـد الأحـد، ورضـا بمـا قـدّر ودبّـر، وبالصلاة يسـتمد المؤمـن الهدايـة والإعانـة والسـداد مـن ربـه، دون انقطـاع.



لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ

(الشـاكرون أطيـب النـاس نفوسًـا، وأشـرحهم صـدورًا، وأقرهـم عيونًـا، فـإن قلوبهـم ملآنـة مـن حمـده، والاعتـراف بنعمـه، والاغتبـاط بكرمـه، والابتهـاج بإحسـانه، وألسـنتهم رطبـة فـي كل وقـت بشـكره وذكره، وذلك أسـاس الحيـاة الطيبة، ونعيـم الأرواح، وحصـول جميـع اللذائـذ والأفـراح، وقلوبهم فـي كل وقت متطلعة للمزيـد، وطمعهـم ورجاؤهـم فـي كل وقـت بفضـل ربهـم يقـوى ويزيـد) [1]

(الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -)

---

(1) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة ص 80

ابتلاء النعمة بين الشكر والجحود:

ينطلـق المؤمـن فـي سيره إلـى اللـه - تعالى - معتمـدًا على دعامتـي الصبر والشـكر، فيرتقـي بهمـا فـي مـدارج الإيمـان ومنـازل العبوديـة. لـذا كان لابـد أن يتعـرض - فـي رحلتـه علـى الأرض - لامتحانـات متنوعـة، واختبـارات مختلفـة؛ من أجـل تقويـة هاتيـن الدعامتين.

وإذا كان أكثـر النـاس يظنـون أن الابتـلاء يكـون بالضـراء والشـدائد والمكاره فقـط، فقـد نـص القـرآن الكريـم علـى اعتبـار النعمـة ابتـلاء، تمامًـا كالمحنـة ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:35).. والابتـلاء بالخيـر يشـمل: القـوة والسـلطان والنفـوذ، والجـاه وعلـو المناصـب والمكانـة الاجتماعيـة، وفَـرَهِ المراكـب ووسـائل المواصـلات الفارهـة والمنازل الفاخـرة، والصحة والمـال الوفير والعلـم الغزيـر و... ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللـهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم:34)

وهكـذا كل مـا أنعـم اللـه - تعالـى - بـه علـى عبـاده فـي حقيقتـه امتحـان واختبـار يكشـف عـن أصحـاب النفـوس السـوية والقلـوب اليقظـة التـي تقودهـا هـذه النعـم إلـى المنعـم - عـز وجـل -، فتوظـف نعمه فـي طاعته ومرضاتـه، كما تفضـح أصحـاب الفطـر المنحرفـة والقلـوب الجاحـدة التـي تقودهـم النعـم إلـى البطـر والغـرور والاسـتكبار والطغيـان!

وقد عرض كتاب الله - تعالى - نموذجين متناقضين في كيفية التعامل مع النعم تنبيهًا للعباد لسلوك السبيل الأمثل لشكر النعمة:

1 - نموذج الملك الشاكر سليمان - عليه السلام -:

فقد آتاه الله ملكًا لم يعطه أحدًا غيره، كما جمع الجن والإنس والطيور والوحوش في خدمته ورهن إشارته، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص، وعلمه منطق الطير وأتاه من كل شيء. وقد نظر سليمان - عليه السلام - إلى كل هذا الملك العريض والخير العميم على أنه ابتلاء وامتحان من الله - تعالى - وليس دليل كرامة وامتياز - كما يعتقد الغافلون - فهتف من أعماقه، محدّثًا بنعمة اللّه عليه، داعيًا الناس أن يشهدوا عليه، وهو بين يدي نعم اللّه السوابغ عليه ﴿قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي ﴾ (النمل: 40)

كما تضرع سليمان - عليه السلام - إلى ربه؛ ليعينه على شكر النعم التي تظاهرت عليه ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (النمل:19).

(أوزعني) اجمعني كلي.. اجمع جوارحي ومشاعري ولساني وجناني وخواطري وخلجاتي، وكلماتي وعباراتي، وأعمالي وتوجهاتي. اجمعني كلي.. اجمع طاقاتي كلها.. أولها على أخرها وآخرها على أولها

[وهـو المدلـول اللغـوي لكلمـة أوزعنـي] [1] لتكـون كلهـا فـي شـكر نعمتـك علـي وعلـى والـدي. وهـذا التعبيـر يشـي بنعمـة اللـه التـي مسـت قلـب سـليمان - عليـه السـلام - فـي تلـك اللحظـة، ويصـور نـوع تأثـره، وقـوة توجهـه، وارتعاشـة وجدانـه، وهـو يستشـعر فضـل اللـه الجزيـل، ويتمثـل يـد اللـه عليـه وعلـى والديـه، ويحـس مـس النعمـة والرحمـة فـي ارتيـاع وابتهـال) [2]

وهكـذا شـأن الربانييـن، يسـتقبلون الإحسـان بالإحسـان، ويتلقـون الخيـر بالخيـر، بـل إن نفوسـهم لتضيـق بالإحسـان، وتـراه حمـلًا ثقيـلًا عليهـا، إذا هـي وجـدت ضعفًـا عـن القيـام بشـكره، وكلمـا زادهـم اللـه مـن عـوارض نعمـه، قـوة ومجـدًا وغنًـى، ازدادوا رجوعًـا إلـى أصـل فاقتهـم، عبوديـة وتذلـلًا وانكسـارًا لله - عـز وجل.

---

(1) ذكر الإمام الراغب في معنى ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾: (الوُزُوعُ: الولوعُ بالشيء. يقال: أَوْزَعَ اللهُ فلانًا: إذا ألهمه الشّكر، وقيل: هو من أُوْزِعَ بالشيء: إذا أُولِعَ به، وقيل معنى (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ:
ألهمني، وتحقيقه: أولعني بذلك، واجعلني بحيث أَزِعُ نفسي عن الكفران).
وخلاصة المعنى كما ذكر د. صلاح الخالدي: (ألهمني شكر نعمتك، واجمعني على شكر نعمتك، واصرفني إلى شكر نعمتك، واحبسني على شكر نعمتك، وامنعني عن كل ما يؤخرني عن شكر نعمتك، وكفني عن الاشتغال بأي شيء يلهيني عن شكر نعمتك، ووجهني إلى طريق واحد وهو شكر نعمتك) (القصص القرآني ج 522/3)

(2) في ظلال القرآن ج5 /2637

النموذج الثاني: الغني الجاحد (قارون):

يعد قارون مثالًا صارخًا، ونموذجًا شاخصًا، للدلالة على جحود الإنسان لنعمة مولاه، وبطره وطغيانه على خلق الله. فقد اغتر بكنوزه الهائلة وانخدع بثرواته العظيمة وأمواله الكثيرة فأسكرته نشوتها، واستبد به فرح الزهو والعجب والخيلاء، واتخذ من ثرواته وسيلة للبغي والفساد والطغيان حتى قال في جحود واضح وكبر فاضح ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ (القصص: 78) أي: أوتيته بعلمي، بمهاراتي، بقدراتي، بأفضليتي واستحقاقي لهذا المال.

لم يدرك قارون حقيقة ابتلاء الله - تعالى - له بالمال، وأن إنعام الله على أحد بالمال ليس دليلَ محبته له، وأن تقليل المال في يد آخر ليس دليل غضب الله - تعالى - عليه، وأن المال ليس هو مظهر التكريم أو الإهانة، لم يعرف قارون كل هذا. ولهذا سقط في الامتحان ورسب في الاختبار، واستحق غضب الله - تعالى - وسخطه، فحلت عليه العقوبة، وحاق به العذاب.

وما أكثر الناس الذين تستخفهم كثرة النعم وتتابع العطاء حتى ظنوا فيها دليلًا على رضا الله ومحبته، يرددون بلسان الحال أو المقال قولة قارون المغرور المطموس الذي نسي مصدر النعمة، وتنكر لصاحب الفضل، وكفر بمن يستحق الشكر!

قصة الأعمى والأقرع والأبرص:

وقد حدثنا الرسول - ﷺ - عن هذين الصنفين من الناس: الكافرين بالنعمة، والشاكرين لها، فيما روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: (إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَى، بَدَا لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ (اشمَأَزُّوا مِنْ رُؤْيَتِي)، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا، فَقَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ أَوْ قَالَ: الْبَقَرُ، هُوَ شَكَّ فِي ذَلِكَ إِنَّ الْأَبْرَصَ وَالْأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا: الْإِبِلُ، وَقَالَ الْآخَرُ: الْبَقَرُ؛ فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا، وَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ. قَالَ: فَأَعْطَاهُ بَقَرَةً حَامِلًا، وَقَالَ: يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا، وَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: يَرُدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا (حَامِل)، فَأُنْتِجَ هَذَانِ (أي: صَاحِب الْإِبِل وَالْبَقَر) وَوَلَّدَ هَذَا (أي: صَاحِب الشَّاة، وَهُوَ بِتَشْدِيدِ اللَّام)، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ بَقَرٍ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ غَنَمٍ، ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، تَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي(أي:

الأسْبَاب الَّتِـي يَقْطَعُهَـا فِـي طَلَـب الرِّزْق)، فَلَا بَـلَاغَ الْيَـوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ بِكَ، أَسْـأَلُكَ بِالَّـذِي أَعْطَـاكَ اللَّـوْنَ الْحَسَـنَ وَالْجِلْـدَ الْحَسَـنَ وَالْمَـالَ بَعِيـرًا؛ أَتَبَلَّـغُ عَلَيْـهِ فِـي سَـفَرِي، فَقَـالَ لَـهُ: إِنَّ الْحُقُـوقَ كَثِيـرَةٌ، فَقَـالَ لَـهُ: كَأَنِّـي أَعْرِفُـكَ؛ أَلَـمْ تَكُـنْ أَبْـرَصَ يَقْـذَرُكَ النَّـاسُ، فَقِيـرًا فَأَعْطَـاكَ اللَّـهُ، فَقَـالَ: لَقَـدْ وَرِثْـتُ لِكَابِـرٍ عَـنْ كَابِـر(أي: كَبِير عَـنْ كَبِيـر فِـي الْعِـزّ وَالشَّـرَف)ٍ، فَقَـالَ: إِنْ كُنْـتَ كَاذِبًـا فَصَيَّـرَكَ اللَّـهُ إِلَى مَـا كُنْتَ، وَأَتَـى الْأَقْـرَعَ فِـي صُورَتِـهِ وَهَيْئَتِـهِ، فَقَـالَ لَـهُ مِثْـلَ مَا قَـالَ لِهَذَا، فَـرَدَّ عَلَيْـهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْـهِ هَـذَا، فَقَـالَ: إِنْ كُنْـتَ كَاذِبًـا فَصَيَّـرَكَ اللَّـهُ إِلَى مَـا كُنْتَ، وَأَتَـى الْأَعْمَى فِي صُورَتِـهِ فَقَـالَ: رَجُـلٌ مِسْـكِينٌ، وَابْـنُ سَـبِيلٍ، وَتَقَطَّعَـتْ بِيَ الْحِبَـالُ فِي سَـفَرِي، فَلَا بَـلَاغَ الْيَـوْمَ إِلَّا بِاللَّـهِ، ثُـمَّ بِـكَ، أَسْـأَلُكَ بِالَّـذِي رَدَّ عَلَيْـكَ بَصَـرَكَ شَـاةً أَتَبَلَّـغُ بِهَـا فِـي سَـفَرِي، فَقَـالَ: قَـدْ كُنْـتُ أَعْمَـى فَـرَدَّ اللَّـهُ بَصَـرِي، وَفَقِيـرًا فَقَـدْ أَغْنَانِـي، فَخُـذْ مَـا شِـئْتَ، فَوَاللَّـهِ لَا أَجْهَـدُكَ الْيَـوْمَ بِشَـيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ (أي: لَا أَشُـقّ عَلَيْك فِي رَدّ شَـيْء تَطْلُبـهُ مِنِّـي أَوْ تَأْخُـذهُ)، فَقَـالَ: أَمْسِـكْ مَالَـكَ؛ فَإِنَّمَـا ابْتُلِيتُـمْ فَقَدْ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْكَ، وَسَـخِطَ عَلَـى صَاحِبَيْكَ) [1]

ويعجبنـي مـا قالـه الشـيخ محمـد الغزالـي - رحمـه اللـه - وهـو يصلـح ليكـون تعقيبًـا علـى القصـة السـابقة: (إن الأمـر بالشـكر ليـس تكليـف مشـقة يصبـر النـاس علـى أدائـه، بـل هـو طريـق كمـال ينبغـي أن يسـير النـاس فيـه بهمـة وقـدرة، والإقـرار بالجميـل، وركـون الفـؤاد إلـى صانعـه يجعـل المـرء أهـلًا للمزيـد؛ لأن النعمـة تثمـر فيـه، كمـا يثمـر المـاء فـى الأرض الخصبـة،

---

(1) صحيح البخارى رقم(3464)، ومسلم رقم(7619)

ولذلك لا يضن عليها بالقليل والكثير، أما الأرض السبخة فإن انعدام الأمل فى ريها يجعل إرسال الماء إليها عبثًا، ولذلك يقطع عنها ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم:7)، وشدة العذاب كفاء لخباثة الجحود!. وماذا على الناس إذا مرحوا في نعمة الله - تعالى - أن يطووا ضمائرهم على عرفان الجميل والاعتراف بالفضل، وأن يقولوا لله المنعم: نشكرك. أهذا كثير أم هذا ثقيل؟) [1]

يقول محمود الوراق:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة	علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله	وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها	وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
فما منهما إلا له فيه نعمة	تضيق بها الأوهام والسر والجهر

ركائز الشكر:

عرف الإمام ابن القيم - رحمه الله - الشكر؛ فقال:(الشُّكْرَ: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة) [2]

---

(1) الجانب العاطفي من الإسلام ص 183

(2) المهذب من مدارج السالكين ص236

ومن التعريف السابق يتبين أن الشكر يقوم على ثلاث ركائز أساسية:

1 - شكر القلب: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ (النحل: 53):

وهو معرفة القلب وإقراره بأن ما بالعبد من نعمة؛ فهو من الله - تعالى -، وأن ذلك إحسان من المنعم - جل وعلا - وتفضل على عبده، وأنه لا حول له ولا قوة، بل إن وصولها إليه بغير استحقاق منه ولا بذل ثمن، فعليه أن يتلقاها بإظهار الفقر والفاقة إليها، وأن يستكثر قليلها عليه، ويستقلَّ كثير شكره عليها.

2 - شكر اللسان ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:11):

وهو الثناء على الله - تعالى - بنعمه، وحمده عليها مع محبته والتحدث بها على سبيل الاعتراف بفضله وإظهار الفاقة، لا لرياء وسمعة وخيلاء، ليكون الذكر داعيًا إلى شكر القلب والجوارح.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - في بيان النعم التي يجب على المرء استحضارها في فكره؛ ليقوم بواجب شكرها: (النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها، فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده عرّفه نعمته الحاضرة، وأعطاه من شكره قيدًا يقيّدها به حتى لا تشرد; فإنها تشرد بالمعصية، وتُقيّد بالشكر، ووفقه لعمل يستجلب النعمة المنتظرة، وبصّره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها، ووفقه لاجتنابها، وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه، وعرّفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها) [1]

(1) فوائد الفوائد ص 348

وقـد علمنـا النبـي - عليـه الصـلاة والسـلام - الثنـاء علـى نعمـة ربنـا ضمـن دعـاء نبـوي يفيـض إيمانًا وشـكرًا، فـإذا أصبح وإذا أمسـى، يقـول: (اللَّهُمَّ مَـا أَصْبَحَ بِـي مِـنْ نِعْمَـةٍ أَوْ بِأَحَـدٍ مِـنْ خَلْقِـكَ فَمِنْـكَ وَحْدَكَ لا شَـرِيكَ لَـكَ، لَكَ الْحَمْـدُ وَلَكَ الشُّـكْرُ) وأخبـر أن (مـن قالهـا حيـن يصبـح فقـد أدى شـكر يومه. ومـن قالها حين يمسـي فقـد أدى شـكر ليلته)[1]

3 - شكر الجوارح:﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ (سبأ:13)

وشـكر الجـوارح معنـاه: قيـام الجـوارح بالعبودية للـه رب العالميـن؛ لأن كل جارحـة لهـا حظهـا مـن العبوديـة، ولا يتـم ذلـك إلا بالعمل بطاعـة اللـه - تعالى - وطاعـة رسـوله، بفعـل المأمـور واجتناب المحـذور، ويدخل في ذلـك صرف نعمه فيمـا يحبـه ويرضـاه، والاسـتعانة بها على طاعتـه، والحذر من صرفهـا في معصيته، أو الاسـتعانة بهـا على ذلك.

فشـكر نعمـة المال إنفاقـه في وجوه البـر والخير المختلفة، والبـذل للفقراء والمسـاكين والمحتاجين، واجتناب الإسـراف والتبذير والشـح والتقتير.

وشـكر نعمـة الصحـة اسـتثمارها فيمـا يحـب اللـه - تعالـى - ويرضـى فـي أداء الطاعـات، والبعـد عمـا يضـر بهـا ويجلـب لهـا الأمـراض والأسـقام كالتدخيـن والمسـكرات، وغيرهـا.

وشـكر نعمـة العلم نشـره وبثه في النـاس، وبالنصح لأئمة المسـلمين وعامتهم، وبالأمـر بالمعـروف والنهي عـن المنكر والصبر على مشـقة ذلك.

---

(1) رواه أبو داود 5073

وشكر نعمة الزواج تأسيس بنيانه على طاعة الله - تعالى - في ظلال من الأنس والسكينة والمودة والرحمة، وحماية هذا البنيان من عوامل الهدم كالشقاق والخصام.

كفران النعم بين الاستدراج والإمهال:

ولعل المرء يتسائل عن أحوال أفراد وجماعات وأمم لجوا في دوامة الطغيان واستمرئوا الفساد والعصيان، ولم تنقطع عنهم نعم الله وعطاياه، بل ربما تكاثرت وتتابعت عليهم ألوان النعم واللذائذ والمشتهيات؟!

أقول لك: إن شأن الله - تعالى - فيمن أصر على الطغيان والاستكبار ولم يبال بالوعيد، ولم يكترث بالنذير؛ أن يمده بمزيد من النعم، وأن يسكره بمزيد من المتع والرغائب، استدراجًا له إلى مزيد من التيه والضلال. قال الله - تعالى -:﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ (الأنعام:44)

(والتعبير القرآني: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يصور الأرزاق والخيرات، والمتاع والسلطان متدفقة كالسيول، بلا حواجز ولا قيود، وهي مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ ﴾ وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة، واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها - بلا شكر ولا ذكر - وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المُنعم ومن خشيته وتقواه، وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع، وتبع ذلك

فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق، وجرَّ هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها؛ عندئذٍ جاء موعد السنة التي لا تتبدل ﴿ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾، فكان أخذهم على غرة، وهم في سهوة وسكرة. فإذا هم حائرون منقطعوا الرجاء في النجاة عاجزون عن التفكير في أي اتجاه، واذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم)[1]

ألا ترى إلى فرعون لما ركب رأسه في البغي والطغيان، وأصر على الاستخفاف بالنذر التي سيقت إليه، تركه الله– تعالى - لشأنه، وأمكنه من الوصول إلى المزيد من مظاهر العتو والتمكين، حتى إذا لم يشك أن الدنيا في قبضته وأن القضاء ليس إلا قضاءه، أغرقه في اليم، ودمر ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ (الأعراف: 137)

وكذلك قارون لما ركن إلى الاستكبار والطغيان وانخدع بالكنوز والثروات؛ استدرجه الله إلى المزيد من ذلك، حتى خُدع الجاهلون بسلطانه وأمواله، وظنوا أنها نعمة دائمة أورثها الله إياها، فقالوا ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (القصص:79)، حتى إذا ما وصل إلى أوج غناه وقوته، أهلكه الله - تعالى - في لحظة ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (القصص:81).

وهكذا سنة الله– تعالى - مع الطغاة والمستكبرين!، ولكن ما أقل المعتبرين!

---

(1) في ظلال القرآن ج1090/2

من ثمرات الابتلاء:

في اللحظة التي تدرك فيها أن ورود النعم عليك، وتتابع العطاء بمثابة (ابتلاء واختبار) لا يقل أهمية وخطورة عن ابتلاء المنع والضراء؛ تتفتح منافذ قلبك لمراقبة جوارحك كيف تستثمر هذه النعم فيما يرتقي بك في منازل الإيمان عبر تحقيق الشكر العملي الذي يعصمك من البطر والغرور والطغيان.



(ما أعجب لطف الله - عز وجل - بعباده الصالحين!

إنظر إلى لطفه سبحانه بنبيه يوسف - عليه السلام، تتعاقب عليه الشدة والرخاء، اليسر والعسر.. غيابة جب ثم دهاليز قصر، غياهب (ظلمات) سجن، ثم مقاليد حكم!

حقًّا.. من درى حكمة الله - عز وجل - ولطفه في تصريف الأمور، وجريان الأقدار؛ لن يجد اليأس إلى قلبه سبيلًا، مهما أظلمت المسالك، وتوالت العقبات، وتكاثرت النكبات)

من أسرار اسم اللطيف:

مـن أروع الأسـماء الحسـنى التـي يسـتحضرها المؤمـن فـي أوقـات المحـن والشـدائد اسـم (اللطيـف)، فهـو يؤنـس وحشـة النفـوس المكروبـة، ويخفـف من حـدة آلامهـا ومعاناتهـا، ويزيـل خوفهـا وقلقهـا واضطرابهـا، ويسـكب فـي القلوب المكـدودة أريـج الأمـل والتفـاؤل، ويمدهـا بـزاد عظيـم مـن الرجاء وحسـن الظن باللـه- تعالـى -، ويعلمهـا الرضـا بقضائـه والتـوكل عليـه فـي كافـة الأمور.

فما معنى اسم اللطيف؟!

قال الإمام أبو حامد الغزالي - رحمه الله -:

(اللطيـف هـو الـذي يعلـم دقائـق الْمصَالـح وغوامضهـا، ثـمَّ يسْـلك فِـي إيصالهـا إِلَـى المسـتصلح سَـبِيل الرِّفْـق دون العنف. فَـإِذا اجْتمع الرِّفْق فِـي الْفِعْل واللطـف فِـي الْإِدْرَاك، تـمّ معنـى اللطف، وَلَا يتَصَـوَّر كَمَال ذَلِك فِي الْعلـم وَالْفِعْل إِلَّا للـه - سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَـى -) [1]

وأضـاف الإمـام ابـن القيـم - رحمـه اللـه -: (واسـمه اللطيف يتضمـن: علمه بالأشـياء الدقيقـة، وإيصالـه الرحمـة بالطـرق الخفية) [2]

---

(1) المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى ص 101

(2) شفاء العليل 147/1

ويقول عن هذين المعنيين في نونيته:

وهـو اللطيـف بعبـده ولعبـده ... واللطـف في أوصافـه نوعـان

إدراك أسرار الأمـور بخـبرة ... واللطـف عنـد مواقـع الإحسـان

فيريـك عزتـه ويبـدي لطفـه ... والعبـد في الغفـلات عـن ذا الشـان

وما أجمل ما قاله الشيخ السعدي - رحمه الله - وهو يشرح اسم اللطيف:

(الـذي لطـف علمه حتـى أدرك الخفايـا، والخبايا، وما احتـوت عليه الصدور، ومـا فـي الأراضـي من خفايا البـذور. ولطف بأوليائه، وأصفيائه، فيسـرهم لليسـرى وجنبهـم العسـرى، وسـهل لهـم كل طريـق يوصل إلـى مرضاته وكرامتـه، وحفظهم مـن كل سـبب ووسـيلة توصـل إلى سـخطه، من طرق يشـعرون بها، ومـن طرق لا يشـعرون بهـا، وقـدر عليهـم أمـورًا يكرهونهـا لينيلهـم ما يحبـون، فلطـف بهم في أنفسـهم فأجراهـم علـى عوائـده الجميلـة، وصنائعـه الكريمـة، ولطـف لهـم فـي أمـور خارجـة عنهـم لهـم فيها كل خيـر وصلاح ونجـاح) [1]

---

(1) توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص192.. للشيخ السعدي - رحمه الله - كلام رائع في بيان مظاهر لطف الله بعباده ذكره في كتابه (المواهب الربانية من الآيات القرآنية ص 146 - 155)، فارجع إليه فإنه يشفي الغليل ويروي العليل.

يوسف - عليه السلام - وتجليات اللطف الرباني: [1]

إن المتدبر لقصة يوسف - عليه السلام - ليجد أنها تحمل من أنوار وتجليات اسم اللطيف ما يعجز القلب عن تخيل وقوعه وتصور حدوثه، فكل ما أصاب يوسف من محن وشدائد تحولت بلطفه سبحانه الخفي إلى منح وعطايا حتى صار ملكًا متوجًا بعد أن كان حبيس جب ونزيل سجن!

لقد كانت حياة يوسف سلسلة متصلة من المحن والشدائد، واجه فيها كيد الإخوة، ووحشة الجب، وألم الغربة والرق، وفتنة الإغراء والشهوة، وظلمة السجن بعد رغد العيش وطراوته في قصر العزيز، ثم محنة الرخاء والسلطان المطلق في يديه، وهو يتحكم في أقوات الناس وفي رقابهم.. ولكن تدبير الله اللطيف جعل له في كل محنةٍ منحةٍ، ومع كل عُسرٍ يسرًا، نجاة من كل ابتلاءٍ سالمًا معافًا في نفسه ودينه، فكانت له المنن في ثنايا المحن.

وأود أن أستعرض معك طرفًا من لطف الله - عز وجل - بيوسف في مواقف حياته المختلفة ومحنه المتتالية:

1 - محنة كيد الإخوة والإلقاء في الجب:

بدأت محنة يوسف عندما نبتت نبتة الحقد والحسد في قلوب إخوته نتيجة حب أبيهم الشديد ليوسف، فقرروا التخلص منه حتى يخلو لهم وجه أبيهم، فأعدوا عدتهم وأحكموا خططهم وجهزوا حججهم، وتجردوا من

(1) استفدت من التعليق على جوانب اللطف في قصة يوسف من كتاب (الإنسان بين السراء والضراء - د. محمد السيد يوسف) وكتاب (لمسات قدرية في سورة يوسف – د. مأمون جرار)

مشاعر الإخوة ولبسوا ثياب الذئاب، وألقوا أخاهم- بغير ذنب جناه- في جب موحش مظلم.. ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ (يوسف:15)، في هذه اللحظة يتنزل اللطف الإلهي؛ ليحفظ يوسف ويثبته ويطمئنه، يزيل عنه وحشته، ينير له كل ظلمة، يذهب عنه كل حزن، يفرج عنه كل كرب، ييسر له كل عسر، يمسح عنه كل دمعة، ينزع عنه كل أسى وألم.

2 - محنة الرق:

خرج يوسف من محنة الجب مباشرة إلى محنة الرق والعبودية، وتداولته الأيدي- كالسلعة- تبيعه وتشتريه بثمن بخس، وتجلت ألطاف الله - تعالى - مرة أخرى - في كون القافلة التي التقطت يوسف كانت متجهة من الشام إلى مصر، ولم تكن متجهة من مصر إلى الشام، فقد رتب الله - تعالى - بلطفه ليوسف دورًا في مصر لا في سواها، كما قدر الله- تعالى - أن يشتريه عزيز مصر، وأن ينعم في بيته بالمحبة والاهتمام والرعاية ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ (يوسف: 22)

3 - محنة المراودة والشهوة:

انتهى المطاف بيوسف إلى قصر العزيز بمصر، حيث كانت تنتظره أعظم المحن في حياته (محنة المراودة)، وبدأت سيدة القصر تنصب الشباك لفتاها، فتتزين له كأبهى ما يكون التزين، وتلين له الكلام، وتفرش له الطريق إلى ودها، وتستخدم في ذلك كل أسلحة الاغراء التي تملكها، بل وصل بها الأمر

- وقد هاج بها بركان الشهوة وازدادت رغبتها في يوسف - أن صرحت بذلك ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾، وهنا التجأ يوسف إلى ربه يطلب منه العون والحماية والاستغاثة، فاستجاب له وعصمه من هذه الفتنة الطاغية والمحنة القاصمة ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (يوسف: 25)، ثم زاد الأمر سوءًا عندما دخل صواحب امرأة العزيز على الخط، وحاولن إغواء يوسف، وكأن كيد النسوة هو الريح التي دفعت شراع يوسف نحو محطة جديدة وميناء جديد في رحلته، يقوده فيما بعد إلى الملك والتمكين، وهنا كان السجن هو المحطة التالية ليوسف يجد فيه أمنًا من الإغراءات ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ (يوسف:35)

4 - محنة السجن:

كان السجن الثمنَ الذي دفعه يوسف مقابل عفته وطهارته، وترفعه عن الرذيلة، وسموه عن الفحشاء، وكان من لطف الله به أن فتح له بابًا إلى الدعوة إلى الله وتأويل الأحاديث. فبعد أن قام بتأويل الرؤيا للسجينين اللذين كانا معه، طلب من أحدهما أن يرفع قضيته إلى الملك ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾، ونسي الساقي أمر يوسف، ومكث يوسف في السجن بضع سنين، حتى جاءت اللحظة الحاسمة لخروج يوسف من السجن عبر رؤيا عجيبة رآها الملك ولم يجد جوابًا شافيًا عند حاشيته، وهنا تذكر الساقي يوسف - عليه السلام - ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾

وهكـذا.. (عندمـا أراد اللطيـف أن يُخـرج يوسـف - عليـه السـلام - مـن السـجن؛ لـم يدكـدك جـدران السـجن، لـم يأمـر مَلَـكًا أن ينـزع الحياة من أجسـاد الظلمـة، لـم يـأذن لصاعقـة مـن السـماء أن تقتلـع القفـل الحديـدي.. فقـط جعل الملِـك يـرى رؤيـا فـي المنام تكون سـببًا خفيًّـا لطيفًا يسـتنقذ به يوسـف الصدّيق مـن أصفـاد الظلـم!) [1]

وتتابعـت الأحـداث وخـرج يوسـف مـن محنـة السـجن عزيـزًا مكرمًـا؛ ليتولى خزائـن الأرض ﴿ وَكَذَلِـكَ مَكَّنِّـا لِيُوسُـفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَـاء نُصِيـبُ بِرَحْمَتِنَا مَـن نَّشَـاء وَلاَ نُضِيـعُ أَجْرَ الْمُحْسِـنِينَ ﴾ (يوسـف:56)

فـي هـذه اللحظـة الحاسـمة في سـيرة يوسـف، تتجلـى كل لمسـات اللطف السابقة:

الرؤيـا التـي رآهـا، ومفارقتـه أبـاه بكيـد الإخـوة، وانتقالـه إلـى مصـر بتدبير القـدر الإلهـي، وشـراء عزيـز مصر له، وشـغف امرأة العزيـز به وتمنعـه واعتصامه بربـه، وإلقـاؤه فـي السـجن، وتوافـق سـجنه مـع صاحبيـه اللذيـن يصبـح أحدهما سـاقي الملـك، ورؤيـا الملـك التـي تأتي بعد حيـن، كل ذلـك كان تمهيـدًا ومقدمة لبدايـة التمكين.

مـن كان يتخيـل أن يكـون الجـب الموحش، ثم السـجن المظلـم بوابة الملك والتمكين!

ولكـنّ اللطيــف سـبحانه يقــدر الأقــدار، ويصــرّف الأمــور، ويخرجــه مــن السـجن، ويجعلــه فــي منصــب رفيــع، ثــم يقــدّر القحــط علــى البــلاد،

(1) لأنك الله رحلة إلى السماء السابعة ص 55 - 56 – علي الفيفي

ثـم يأتـي بإخوتـه فـي ثيـاب الـذل.. ومـا تـزال أقـدار اللطيـف تلتـف؛ لتحقـق تلــك الرؤيــا القديمــة، فينبهــر يوســف لســجود والديــه وإخوتــه، ويقــول: ﴿ يَـا أَبَـتِ هَـذَا تَأْوِيـلُ رُؤْيَـايَ مِـن قَبْـلُ قَـدْ جَعَلَهَـا رَبِّـي حَقًّـا وَقَـدْ أَحْسَـنَ بَـي إِذْ أَخْرَجَنِـي مِـنَ السِّـجْنِ وَجَـاء بِكُـم مِّـنَ الْبَـدْوِ مِـن بَعْـدِ أَن نَّـزغَ الشَّـيْطَانُ بَيْنِـي وَبَيْـنَ إِخْوَتِـي إِنَّ رَبِّـي لَطِيـفٌ لِّمَـا يَشَـاء إِنَّـهُ هُـوَ الْعَلِيـمُ الْحَكِيـمُ ﴾ (يوسف:100)

إن هـذه القصـة الرائعـة، الغنية بالألطـاف الإلهية، تلخصهـا حكمة ابن عطاء القائلة:

(من ظن انفكاك لطفه عن قدره، فذلك لقصور نظره)

ويعجبني ما قاله البوطي - رحمه الله - في التعليق على هذه الحكمة:

(اعلـم أن اللطـف هـو المـراد، وهـو الأصـل فـي أقـدار اللـه - عـز وجل - التـي قـد تتمثـل بأنواع من الشـدائد والابتلاءت، أي أن الشـدائد التـي قد يبتلي اللـه بهـا عبـاده، خـدمٌ وأدوات لألطافـه، وليسـت هـي المـرادة لذاتهـا.. فمـا يبتلـي اللـه عبـده بفقـر بعـد غنـى، أو بمـرض بعد عافية، أو بشـدة بعـد رخاء؛ إلا لأن فـي ذلـك علاجًـا لآفـة انتابته أو لسـوءٍ حل به. ولاشـك أن المظهر يحمل إلـى صاحبـه معنـى مـن معانـي الشـدة، لعـدم اطلاعـه علـى الغيـب، ولتخيله الأمـر علـى خـلاف حقيقتـه، ولكـن هـذا المظهـر الخـادع لا عبـرة بـه، وإنمـا العبـرة بالنتائـج والثمـرات، والنتائـج تحمـل لصاحبـه مـا كان يتأملـه، أو فـوق الـذي كان يتأملـه، وهـذا هـو اللطـف مـن الله بعينـه) [1]

---

(1) الحكم العطائية شرح وتحليل ج 2/ 523 - 524 بتصرف

من إشراقات اللطيف في حياتي:

وإنني عندما أقلب في دفتر حياتي؛ لأتأمل صفحات المحن والابتلاءت، ألمح لطفًا خفيًّا في كل مواقف حياتي، فقد كانت محنة ترك العمل ومفارقة الزوجة ونكران الناس وإيثار العزلة سببًا في فتح بابٍ واسعٍ إلى التأمل والتفكر، حتى أكرمني الله - عز وجل - بالكتابة، ووجدت فيها الدواء الشافي لمعظم همومي وأحزاني، ورزقني الله فيها خيرًا كثيرًا، لم أكن يومًا أتخيله أو أطمح إليه [1]. ثم لطف بي مرة أخرى وعدت إلى عملي بعد انقطاع دام عامين، ثم أكرمني مؤخرًا بالزواج مرة أخرى، بعدما تغيرت نظرتي للحياة، وأصبحت أصلب عودًا وأقوى عزيمة، وأكثر تجربة وأعظم احتمالًا. وما زلت أطمع في كرم ربي اللطيف!

تُرى.. بعد كل هذه المنح والعطايا التي توافدت عبر بوابة الألم والمعاناة، كيف كان ينبغي عليّ أن أنظر إلى محنتي السابقة التي استغرقت أربع سنوات تجرعت فيها مرارة الأسى والحرمان، وتكاثفت على قلبي سحب الهموم والأحزان؟!

هل كنت محقًّا عندما تسرب اليأس إلى قلبي، واسودت الدنيا في عيني حتى لم يعد لي رغبة بالبقاء في هذه الحياة؟!

---

(1) أكرمني الله - عز وجل - بستة كتب مطبوعة- غير هذا الكتاب الذي بين يديك - لاقت نجاحًا لا بأس به، كما منّ عليّ بالمشاركة ببحثين ضمن موسوعة قرآنية ضخمة بعنوان (التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) وهي تحت الطبع.

أخي،

وأنـت - أيضًـا - فتـش فـي دفتـر حياتـك، وابحـث عـن ألطـاف اللـه - عـز وجـل -، وتأمـل كيـف منعـك ليعطيـك، وحرمـك مما تشـتهي وتحب لأنـه يعد لك شـيئًا أفضـل ممـا تتصـور. وأذاقـك طعـم الألـم لتتعلـم كيـف تنكسـر فـي محراب العبوديـة والافتقـار!

هـل تذكـر عندمـا منعـك اللـه - عز وجـل - مما كنـت تحلم بـه وتطمح إليه مـن النجـاح فـي دراسـة معينـة أو إنجاز مشـروع مـا أو الزواج بمن تهـوى وتحب، ثـم إنـه فتـح لـك على أعقـاب ذلك المنع، وبسـببه؛ سـبيلًا إلـى رزق وفيـر وعيش رغيـد، ولعلـك لـو نجحت فيما كنت تسـعى إليـه وتطمع فيه، لوقف نجاحك سـدًّا فـي بلـوغ ما يسّـره اللـه - عز وجـل - لك!

حقـا إنـه للطـف كبيـر وعجيب مـن الله بالعبـد أن يـراه متعلقًـا - لجهالته - بآمـال ظاهرهـا الخيـر وفـي خفاياهـا البـلاء الكبيـر، فيصرفـه ويقصيه اللـه بلطفه ورحمتـه عـن تلـك الآمـال، ويكرمـه بما يتأملـه ويبتغيه مـن ورائها، ممـا قد يحقق لـه الخيـر ويصرف عنه أسـباب الشـقاء.

من ثمرات الابتلاء:

متى رأيت رياح اليأس تهب على قلبي، تذكرت نفحات اللطف الرباني عندما أخرجتني من محن سابقة وشدائد ماضية إلى أفياء واحة ظليلة أجد فيها من برد اليقين، ونسمات الرضا، وشلالات السكينة والطمأنينة؛ ما يداوي قلبي العليل في أحلك الظروف وأصعب الأزمات.



أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

(اضطـرار العبـد هـو أخـص أوصـاف عبوديتـه، والاضطـرار المطلـوب منـه: هـو ألا يتوهم من نفسـه حـولًا ولا قوة، ولا يـرى لنفسـه سـببًا من الأسـباب يعتمـد عليه أو يسـتند إليه، بـل يكـون بمنزلـة الغريـق فـي البحـر، أو التائـه فـي التيـه القفـر لا يـرى لغياثـه إلا مـولاه، ولا يرجو لنجاتـه من هلكته أحدًا سـواه)[1]

(الشيخ عبد المجيد الشرنوبي)

---

(1) شرح الحكم العطائية ص 103

عجزي كنزي:

فـي حيـاة كل واحـد منـا أوقـات يقـوده فيهـا العجـز التـام وقلة الحيلـة إلى التذلـل والانكسـار بيـن يـدي الرحمـن - عـز وجـل -، يبثـه همومـه، يرفـع إليـه شـكواه، يشـكو إليـه ضعفـه عن تحمـل البلاء، وعجزه أمـام الحمل الثقيـل والذنب الوبيـل، وافتقـاره لتدبيـر مـولاه يختـار لـه مـا يصلحـه ويحقـق الخيـر له.

إنهـا لحظـات تتجسـد فيهـا عبوديتـك للملـك - عـز وجـل - فتنتشـلك مـن بحـار الشـهوات وأمـواج المغريـات، فتشـعر بعدهـا بسـعادة غامرة ولـذة دائمة لا تنقطـع ولا تـزول حتـى يسـتدرجك الشـيطان مـرة أخـرى إلى مسـتنقع الغفلة والعصيـان، غيـر أن هـذه اللحظـات تـكاد تختفـي أو تتـوارى في أوقـات العافية والرخـاء، فتفتـر النفـس وتجـف أشـواق الـروح وتنـزوي عواطـف القلـب، فتأتي أوقـات الشـدائد والكربـات؛ لتذكر النفس بحقيقـة اضطرارها وعجزهـا وافتقارها الدائـم لمولاهـا، فإذا ما أفضى الإنسـان المحـزون والمكروب إلى ربـه ما يعانيه، وطلـب منـه سـبحانه مـا يبتغيـه؛ فإنـه يشـعر بطمأنينـة قلبيـة وسـكينة روحيـة تنشـله ممـا هـو فيه مـن الهـم والضيق.

قال الله - عز وجل -: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ..﴾

(النمل:62)

(فالمضطر في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله، يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء، ذلك حين تضيق الحلقة، وتشتد الخنقة، وتتخاذل القوى، وتتهاوى الأسناد، وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجردًا من وسائل النصرة وأسباب الخلاص. لا قوته، ولا قوة في الأرض تنجده. وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ عنه أو تخلى، وكل من كان يرجوه للكربة قد تنكر له أو تولى. في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، ويتجه الإنسان إلى الله، ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء. فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه. هو وحده دون سواه. يجيبه ويكشف عنه السوء، ويرده إلى الأمن والسلامة، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق) [1]

إنه شعور الداعي ويقينه بأنه منقطع الآمال عن الخلائق كلهم إلى الله وحده، يعتمد في تحقيق رغائبه، وفي دفع مخاوفه، ويهتف في ضراعة وخشوع وإخلاص: (يا رب.. يا رب)؛ فتخمد نيران القلق، وتزول وحشة الألم، وتذهب هموم الروح.

فيا لسعادة القلب وأنس الخاطر بصلته بمولاه الجبار في لحظات الاضطرار، عندها تتفجر ينابيع الافتقار؛ لتملأ القلب بالغيث المدرار بعد طول اشتياق لتمنحه السكون والاستقرار!

---

(1) في ظلال القرآن ج 2658/5

فَإِنِّي قَرِيبٌ:

قـال اللـه - عـز وجـل -:﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّـي فَإِنِّي قَرِيـبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ فَلْيَسْـتَجِيبُواْ لِـي وَلْيُؤْمِنُواْ بِـي لَعَلَّهُمْ يَرْشُـدُونَ ﴾ (البقرة: 186)

هـذه الآيـة مـن أروع مـا يحتـاج المـرء لاسـتحضارها وتدبرهـا في حـالات العجز الشـديد والوهـن المريـر، إنهـا آيـة تسـكب فـي قلـب المؤمـن النـداوة الحلـوة، والود المؤنـس، والرضـى المطمئـن، والثقـة واليقين، ويعيـش منها المؤمن فـي جناب رضي، وقربـى نديـة، ومـلاذ أمين وقـرار مكين.

(فَإِنِّـي قَرِيـبٌ): يَسـمع عبـده إذا شـكا، ويُجيبـه إذا دعـا، ويأخذ بيـده إذا كبا، ويمـدُّه إذا ضعُـف، ويعينـه إذا احتـاج، ويلطف بـه إذا خاف.

(فَإِنِّـي قَرِيـبٌ): قـرب خـاص مـن عابديـه، وسـائليه، ومجيبيـه، وهـو قـرب يقتضـي المحبـة، والنصـرة، والتأييـد فـي الحـركات، والسـكنات، والإجابـة للداعيـن، والقبـول، والإثابـة.

(فَإِنِّـي قَرِيـبٌ): فلمـن إذًا يشـكو الموجوعـون؟، وإلـى مـن يسـتصرخ المسـتصرخون؟، ومـن غير(القريـب المجيـب) يُضـرع إليـه فـي الكـروب، وتُبسـط لـه الأيـدي فـي الملمات، وتتجـه الوجوه إليـه في الشـدائد، ويُرجى لدفـع الضـر وكشـف البـلاء!

(فَإِنِّـي قَرِيـبٌ): قربـه - سـبحانه - منـك يغريـك بالوصل بعـد الهجران، ويولـد الحياء مـن طـول البعـد والجفـاء!.. وإجابتـه دعـاءك تحفـزك علـى تحطيـم جـدران اليـأس والقنـوط، والتوجـه إليـه بقلـب مفعـم بالأمـل والرجاء.

استمداد القوة من الله:

هناك حالات يشعر الإنسانُ فيها - أمام قسوة الحياة وضغط المشاكل وتراكم الأزمات - أنّه بحاجةٍ إلى التعبير عن الآلام التي تمزّق ذاته، والمشاعر التي تجيش بنفسه، كما أنه بحاجة إلى مقاومه إحساسه بالعجز وقلة الحيلة في مواجهة ما يحيط به من شدائد وملمات، فلا يصبح فريسة سهلة للمخاوف والأوهام تمزق قلبه وتشتت فكره وتجعل حياته مقرًّا للآلام النفسية والجسدية التي يولدها كلٌّ من الإحباط واليأس.

وهنا يأتي دور الدعاء الذي يمثل السند الحقيقي للمرء، ليخرجه من عجزه وخوفه وحزنه، فالدعاء هو سبيل القوة الحقة، فلا يُقضى على النفس ويوردها موارد التهلكة كإحساسها بالضياع وفقدان السند المعين واليد الحانية، إنه إحساس يأتي على كل ما فيها من قوة وثقة وعزيمة على السير إلى نهاية الطريق. (فمهما كانت الظروف تبدو مستعصية، فإن كل شيء يبقى في عداد الممكن بالنسبة لإرادة الله الغلابة، وهكذا يكون إسناد الظهر إلى الله بمثابة الإيواء إلى ركن شديد، وهذا من شأنه أن يسد– بحسب درجة الإيمان وقوته– أبواب اليأس، ويفتح أبواب التفاؤل، الأمر الذي يترتب عنه مزيد من ثقة الإنسان بما يستطيع فعله، إما في الحال، وإما على امتداد أزمة قد تطول وقد تقصر بحسب التحديات التي تواجهه) [1]

(1) فلسفة الدعاء ص 45 - د. أحمد الأبيض

(والعبـد إذا انقطـع عـن الدعـاء، يشـعر بالكـرب قـد ألـمَّ بـه مـن كل صـوب وحـدب، ويُخيـل إليـه كأنـه يعيـش وحـده فـي غربـة موحشـة، ويجـد نفسـه في دوامـة مـن الهمـوم والأحـزان، فيضيـق صـدره ولا ينطلـق لسـانه بخيـر، فـإذا دعـا اللـه - عـز وجـل - بقلبـه ولسـانه واجتهـد فـي الدعـاء والضراعـة؛ وجـد نفسـه قد أُلهمـت رشـدها، واسـتردت روحها وريحانها، واسـتعادت ثقتها بخالقهـا، وعاد إليها مـا فقدتـه– بسـب الغفلـة– مـن نـور كانت تمشـي به فـي النـاس) [1]

وكلنـا جـرَّب هـذه اللحظـات المريـرة التـي يعجـز فيهـا المـرء عـن الدعـاء، فيفقـد مصـدر القـوة الوحيـدة في الكـون القادرة علـى اخراجه من وهـدة أحزانه وهمومه!

ويحك أيها العاجز عن الدعاء..

الدعـاء اسـتقواء باللـه يقتـل العجز ويجهـض الإحباط، ويحيـي الأمل ويغرس التفـاؤل، ويقطـع الطريـق أمـام وسـاوس الشـيطان، ويغلـق أبـواب اليـأس، ويفتح للقلب نافذة تطل على إشـراقات الأسـماء الحسـنى تهب روحك الأنس والسـكينة والطمأنينـة، ويمنحـك طاقـة إيجابية تحطـم قيود الوهن؛ فتتفجـر قدراتك وتتحرر إمكاناتـك، فتتفتـح لـك الأبـواب المغلقـة لكثيـر من المعضـلات التـي توهمت أن عناكـب اليـأس قد عشـشـت علـى أقفالها.

---

(1) أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها ص175 - 176 – د. محمد بكر إسماعيل

أخي،

أستطيع أن أصدق أنك عاجز عن فعل أي شيء..

عاجز عن نسيان الماضي الأليم وتجاوز ذكرياته السيئة..

عاجـز عـن مقاومـة الضعـف والعجـز والاستسـلام الـذي ينمـو كل يـوم بداخلـك..

عاجز عن النهوض بسب كثرة الإخفاق وتتابع الفشل..

عاجـز حتـى عـن التفكيـر فـي أي شـيء يخرجـك مـن هـذه الضائقـة، فقـد جربـت ذلـك كلـه وأكثـر!

لكـن لا أقبـل ولا أتخيـل أن تعجـز عـن الانكسـار بين يدي الملـك - عز وجل - تشـكو إليـه أوجاعـك، تبثـه همومك وأحزانـك، تطلب منه المـدد والعون، تذرف الدمـع علـى بابـه، تلقـي الحمل الثقيـل على أعتابه.. فـإذا لم تعتمـد على صاحب هـذا الملكـوت العظيم، فعلى مـن تعتمد؟!

تجربتي مع الدعاء:

أكرمنـي اللـه - تعالـى - قبـل بضع سـنوات بزيارة بيته الحرام، وكنت سـاعتها فـي قمـة لحظـات الضعـف والانكسـار، وقـد غمرنـي الحـزن والإحبـاط؛ فقد كنت علـى وشـك فـراق الزوجة وترك العمـل.. فوقفت أمام الكعبة في خضوع وخشـوع وإجـلال داعيًـا اللـه - عـز وجـل - بدعوات كثيـرة لا أتذكر منهـا - الآن - إلا اثنتين:

الدعـوة الأولـى: اللهـم ائـذن لكتاباتـي أن تبلـغ الآفـاق، وكنـت سـاعتها

لم أكتب كتابًا واحدًا، بل بضعة وريقات أشبه بمقالات قصيرة أوزعها على الأقارب والأحباب، وكنت أقصد من دعوتي تلك أن تصل هذه المقالات لعدد أكبر من الناس؛ فيعم النفع، ولم أتمن يومًا ولم أطمح أن أقوم بتأليف كتيب صغير، فاستجاب الله هذه الدعوة بعد ستة أشهر فقط، وأكرمني بأول كتاب مطبوع، ثم توالت الكتب بعد ذلك والبحوث، وتتابعت الرحمات واللطائف الربانية.

الدعوة الثانية: اللهم إن كنت قضيت في كتابك أني سأفارق زوجتي، فأكرمني بخير منها! وقضى الله بانفصالي عن زوجتي بعد عودتي من العمرة مباشرة، وظللت فترة طويلة محبطًا وعازفًا عن الزواج لا أملك إلا الدعاء، سنة تلو سنة، وأنا أدعو وأنتظر الاستجابة. أو تدري متي تحققت الاستجابة؟! بعد سبع سنوات كاملة من دعوتي أمام الكعبة المشرفة!

تخيل، سبع سنوات تقلبت فيها بين الأمل واليأس، الثقة والشك، القدرة والعجز!

سبع سنوات كاملة تعلمت فيها أن الله - عز وجل - أعلم بما يصلحني وينفعني، وأن التأخير قد يترتب عليه فوائد أكثر، وثمرات أغزر، مما كنت أتمنى أو أحلم!

تعلمت من خلالها أيضًا أنه في محراب الدعاء تستطيع أن تشكو له - سبحانه - عجزك وضعفك وقلة حيلتك وعدم قدرتك على اتخاذ

الأسباب، تشكو له استحكام أقفال اليأس وسلاسل العجز، وتسلط الشيطان وفتور الإيمان.

باختصار.. أظهر له إفلاسك وافتقارك.

صدقني كل النجاحات التي حققتها في حياتي انطلقت شرارتها الأولى عبر بوابة الإفلاس التام والعجز المطلق.

قرأت كلمات رائعة للدكتور خالد أبو شادي، وهو يتحدث عن افتقار (يونس - عليه السلام -) وهو في بطن الحوت، قائلًا: ﴿ لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾.

صيحة استغاثة أطلقها يونس - عليه السلام - من أعماق قلبه الغارق في دياجي الظلم: ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل، أطلقها وقد ملأته مشاعر الخوف والوحشة والوجل والرهبة، وقد تملكته حالات التضرع والخضوع والتذلل والخشوع؛ ولذا استجيب دعاؤه.

فإذا رددت هذه الكلمات دون أن تغمرك هذه الظلمات، فما حظك من دعائك غير تحريك لسانك وتضييع أوقاتك، ومعنى أن تغمرك: أن تنبض كل نبضة من قلبك بمعاني الضعف والفقر والذل والحاجة، وأن تشعر - كما شعر نبي الله يونس - أن أمواج محنتك محيطة بك من كل جانب توشك أن تغرقك، إلا أن يتداركك الله برحمة منه وفضل، وأن يبرز ذلك في كلامك واضحًا، فإن كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز، وعندها تصل إلى شاطئ الأمان كما وصل ذو النون لوعد الله في كتابه ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنبياء: 88).

عـزة اللـه يـا سـادة لا تتنـزل علـى عزيـز أو من يظـن في نفسـه العـزة، بل على الأذلاء تمطـر، وقـوة اللـه لا يقطفهـا إلا مـن ارتقـى أعلـى قمـم الضعف، وقـدرة الله لا تمنـح لقـادر أو مـن يظـن في نفسـه القـدرة بل لمـن نشـيده العجز)[1]

ولماذا تتأخر الإجابة!؟

بعـض النـاس عندمـا يظـل يدعو اللـه كثيرًا ولا يجـد اسـتجابة لدعائه؛ يصاب قلبـه بالفتـور، ويهجم عليه السـخط، ويـزوره اليأس، فيتوقف عـن الدعاء، وينقطع عـن الرجـاء، وهـذا ناتـج عـن قله فهـم العبد وضعـف إيمانـه واسـتعجاله لرغباته ومحبوباته.

قـال رسـول اللـه - ﷺ -: (مـا مـن داع يدعـو اللـه إلا أتـاه بها إحـدى ثلاث: إمـا أن يعجـل لـه حاجتـه، وإمـا أن يعطيـه مـن الخيـر مثلهـا، وإما أن يصـرف عنه من الشـر مثلهـا) [2]

فليـس الخيـر دائمًـا - كمـا تظـن - فـي إجابـة سـؤالك وتحقيـق طلبـك، (كـم مـن إنسـان تعلـق قلبـه بمهنـة أو بوظيفـة خيـل إليـه أنهـا تحقـق لـه أهدافـه وأحلامـه، وبـات يدعـو اللـه ويلحـف (يُلـح) فـي الدعـاء أن تتحقـق لـه تلـك الوظيفـة، وانتظـر وانتظـر.. دون أن تتحقـق لـه تلـك الوظيفـة، حتـى خيـل إليـه أن اللـه لـن يسـتجيب دعـاءه، ومـا هـي إلا أيـام حتـى خلـق اللـه لـه أسـبابًا أخـرى أوصلتـه إلـى بغيتـه مـن حيـث لـم يكـن يحتسـب، وتأمـل فـي الأسـباب التـي اختارهـا اللـه لـه، وإذا هـي خيـر مـن الوظيفـة التـي كان قـد تعلـق بهـا،

(1) صفقات رابحة ص 74 - 75

(2) رواه الترمذي (3573)

بأضعـاف!.. فأخـذ يحمـد اللـه أن صرفـه عمـا كان متعلقًا بـه، وأكرمه بمـا لم يكن يخطـر منه على بـال)[1]

وقـد تتأخـر إجابـة الدعـاء، ليختبـر الملـك - عـز وجل - قـوة إيمانـك ومتانة يقينـك في مواجهة وسـاوس الشـيطان الذي يغريك بالجزع ويدعـوك إلى القنوط.

وقـد تتأخـر إجابـة الدعـاء؛ لتكتشـف أن (شـجرة اليقيـن) بحاجة إلـى رعاية وعنايـة لتثمـر وتزدهـر، وذلـك عبـر ممارسـة (مقامـات العبوديـة) المختلفـة مـن توبـة صادقـة تمحـو الزلـل، وانطراح علـى عتبة الافتقار، وحسـن ظـن بالله وتوكل عليـه، وقـوة رجـاء وأمـل، وطـول مجاهـدة يقتلع جـذور اليـأس والملل.

أخي،

إن إصـرارك علـى أن يجيـب اللـه - عـز وجـل - رغباتـك وأمنياتـك (حرفيًّـا) - ولـو كان فيهـا شـقاؤك وتعاسـتك - يحجبـك عـن رؤيـة رحمـة اللـه - عـز وجل - ولطفـه، ويفتـح لـك بابًـا واسـعًا للهـم والحـزن والضيـق والحرمـان!

(1) الحكم العطائية شرح وتحليل ج1 /105.. وما أجمل ما قاله ابن عطاء الله - رحمه الله -:(لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجبًا ليأسك، فهو ضمن لك الاستجابة فيما يختاره لك، لا فيما تختاره لنفسك، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد)

وما أروع ما ذكره الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - وهو يذكر الحكمة في تأخير الإجابة:

(رأيت من البلاء أن المؤمن يدعو فلا يُجاب، فيُكرر الدعاء، وتطول المدة، ولا يرى أثرًا للإجابة. فينبغي له أن يعلم أن هذا من البلاء الذي يحتاج إلى الصبر، وما يعرض للنفس من الوسواس في تأخير الجواب مرض يحتاج إلى طب. ولقد عرض لي من هذا الجنس. فإنه نزلت بي نازلة، فدعوت وبالغت، فلم أر الإجابة، فأخذ إبليس يجول في حلبات كيده. فتارة يقول: الكرم واسع والبخل معدوم، فما فائدة تأخير الجواب؟

فقلت له: إخسأ يا لعين. فما أحتاج إلى تقاضٍ، ولا أرضاك وكيلًا.

ثم عدت إلى نفسي فقلت: إياك ومساكنة وسوسته، فإنه لو لم يكن في تأخير الإجابة إلا أن يبلوك المقدّر في محاربة العدو، لكفي في الحكمة.

قالت: فسلني عن تأخير الإجابة في مثل هذه النازلة.

فقلت: قد ثبت بالبرهان أن الله - عز وجل - مالك، وللمالك التصرف بالمنع والعطاء، فلا وجه الاعتراض عليه.

والثاني: أنه قد ثبتت حكمته بالأدلة القاطعة، فربما رأيت الشيء مصلحة والحكمة لا تقتضيه، وقد يخفى وجه الحكمة فيما يفعله الطبيب، من أشياء تؤذي في الظاهر يقصد بها المصلحة، فلعل هذا من ذاك.

والثالث: أنه قد يكون التأخير مصلحة، والاستعجال مضرة، وقد قال النبي - ﷺ -: (لا يزال العبد في خير ما لم يعْجل، قالوا: يا نبي الله، وكيف يعْجل؟ قال: يقول دعوت فلم يُستجب لي) [1]

الرابع: أنه قد يكون امتناع الإجابة لآفة فيك، فربما يكون في مأكولك شبهة، أو قلبك وقت الدعاء في غفلة، أو تزاد عقوبتك في منع حاجتك لذنب ما صدقت في التوبة منه.

والخامس: أنه ينبغي أن يقع البحث عن مقصودك بهذا المطلوب، فربما كان في حصوله زيادة إثم، أو تأخير عن مرتبة خير، فكان المنع أصلح.

والسادس: أنه ربما كان فقد ما فقدته سببًا للوقوف على الباب واللجإ، وحصوله سببًا للاشتغال به عن المسؤول.

فالحق - عز وجل - علم من الخلق اشتغالهم عنه، فلذعهم في خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه، يستغيثون به، فهذا من النعم في طي البلاء، وإنما البلاء المحض، ما يشغلك عنه، فأما ما يقيمك بين يديه؛ ففيه جمالك.

وإذا تدبرت هذه الأشياء، تشاغلت بما هو أنفع لك، من حصول ما فاتك من رفع خلل، أو اعتذار من زلل، أو وقوف على الباب إلى رب الأرباب) [2]

---

(1) (رواه أحمد(3/ 193و210)، وأبو يعلى(2867)، والطبراني في الأوسط)

(2) أعذب الخواطر مختصر صيد الخاطر ص 34 - 35 بتصرف – محمد بن صالح فرحان

من ثمرات الابتلاء:

فـي محـراب الدعاء يقف العبد منكسـرًا ذليلًا فقيـرًا عاجزًا، ينثـر الدمـوع ويسـكب الخشـوع.. يعبـر عـن ضعفـه وقلـة حيلتـه أمـام خالقـه وهـو يناجيـه ويدعـوه، فيزيـده هـذا الضعـف والانكسـار قـوة وثباتًـا فـي مواجهـة التحديـات والأزمـات.. وهـل في أحـوال الإنسـان وتقلباته مـا هو أمتع مـن سـاعة مثولـه بيـن يـدي اللـه متبتـلًا متذلـلًا يجـأر إليه بشـكوى عجـزه وضعفـه، ويسـترحمه؛ لسـوء فقـره وحالتـه؟!

وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

(إذا جرى على العبد مقدور يكرهه؛ فله فيه ستّة مشاهد:

الأوّل: مشـهد التوحيـد، وأن اللـه– تعالـى - هـو الـذي قـدّره وشـاءه وخلقـه، ومـا شـاء اللـه كان، ومـا لم يشـأ لـم يكن.

الثاني: مشهد العدل، وأنه ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه.

الثالـث: مشـهد الرحمـة، وأن رحمته في هـذا المقدور غالبة لغضبـه وانتقامه، ورحمتـه حشـوه (أي ظاهره بـلاء وباطنه رحمة).

الرابـع: مشـهد الحكمـة، وأن حكمتـه سـبحانه اقتضت ذلك، لـم يقدّره سـدى ولا قضـاه عبثًا.

الخامـس: مشـهد الحمـد، وأن لـه سـبحانه الحمـد التـام علـى ذلك من جميـع وجوهه.

السـادس: مشـهد العبوديّـة، وأنـه عبـد محـض مـن كل وجـه تجـري عليـه أحـكام سـيّده، وأقضيتـه بحكـم كونـه ملكـه وعبـده، فيصرفـه تحـت أحكامـه القدريّـة كمـا يصرفه تحـت أحكامه الدينيّـة، فهو محل لجريـان هـذه الأحـكام عليـه)[1]

(الإمام ابن القيم - رحمه الله -)

---

(1) فوائد الفوائد ص 407

الخيرة فيما اختاره الله:

إن مقياس الخير والشر في حياة الإنسان، لا يتمثل فيما قد تهواه نفسه وتتجه إليه رغائبه، فكثيرًا ما تتجه رغائب الإنسان إلى ما فيه ضرره وهلاكه دون أن يعلم، وإنما مقياس ذلك كامن في علم الله - عز وجل - ولطفه؛ فكثيّرا ما يتعلق المرء بظواهر الأسباب، ويرى فيها مصدر استبشاره أو تخوفه، فيُسَرّ إن ابتلي بالنعم ظنًّا منه بأنها مصدر سعادته، ويضيق ذرعًا إن ابتلي بخلاف ذلك، ظنًّا منه بأن ذلك مصدر شقائه وسوء حاله، غافلًا عن أن تحقق ظواهر الرغبات والآمال، لا تعني أنها تحمل معها عوامل الخير والسعادة الذي يبتغيه، بل ربما تجر معها إليه موجبات المصائب والنكبات، وأن عدم تحقق تلك الرغبات والآمال، لا يعني أنها تحمل إليه معها الشدة والبلاء، بل ربما كان ذلك هو السبيل إلى مبتغياته ورغباته الحقيقية.. فالعبرة ببواطن الأمور ونتائجها، لا بمظاهرها وأشكالها، والأمور دائمًا بخواتيمها المحجبة وراء الغيب والكائنة فى علم اللّه والمحكومة بقضائه وقدره، فالله قد يخلق من الشرور التي تراها ويراها الناس أسبابًا للخير، وقد يخلق من الخير الذي تراه، ويراه الناس جميعًا أسبابًا للشر.. وهذه الحقيقة الهامة قررها الله - عز وجل - في كتابه، فقال:﴿ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ ﴾ (البقرة:216)

﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ عزاء للنفوس المكروبة ومواساة لها فى حمل هذا المكروه، وإساغة ما فيه من مرارة وألم.. (إنه من يدري، فلعل وراء المكروه خيرٌ، ووراء المحبوب شرٌّ.. فقد تكون الحسرة كامنة وراء المتعة! وقد يكون المكروه مختبئًا خلف المحبوب. وقد يكون الهلاك متربصًا وراء المطمع البراق. إن العليم بالغايات البعيدة، المطلع على العواقب المستورة، هو الذي يعلم وحده؛ حيث لا يعلم الناس شيئًا من الحقيقة.. فما تستشعر النفس حقيقة السلام إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله، وأن الخير في طاعة الله دون محاولة منها أن تجرب ربها وأن تطلب منه البرهان!) [1]

إننا جميعًا لو عدنا بالذاكرة إلى أحداث جرت على غير ما كنا نريد في ماضي حياتنا، وما أعقبها من نتائج؛ لأذهلنا عظيم رحمة الله سبحانه وواسع فضله وجزيل إحسانه.

فلو كشف الله الغطاء لعبده، وأظهر له كيف يدبّر الله له أموره، وكيف أن الله أكثر حرصًا على مصلحة العبد من العبد نفسه، وأنه أرحم به من أمّه؛ لذاب قلب العبد محبةً لله، ولتقطع قلبه شكرًا لله.

فيا لسعادة القلوب المكلومة، ويا لسكينة النفوس المكروبة عندما توقن أن وراء ما تكره أو تحب علمٌ رباني واسع يتجاوز حدود نظرتها الضيقة وعلمها المحدود للأحداث، وحكمة عظيمة ترتب الأمور بدقة عجيبة لا يتخيلها العقل القاصر!

---

(1) في ظلال القرآن ج1 / 223 - 224 بتصرف

وأفوض أمري إلى الله:

عندما يعلم المؤمن أن كل ما يقضيه الله - عز وجل - هو عين الحكمة والرحمة والخير سواء في العاجل أو الآجل؛ فإن هذه المعرفة تضفي على القلب شعورًا بالأنس والسعادة والطمأنينة والسكينة، مهما اشتدت المصائب، وتوالت المحن؛ فهو في رعاية إله حكيم، واسع العلم والاطلاع على مبادئ الأمور وعواقبها، تام القدرة، غزير الرحمة، يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، فكيف يفترسه القلق، وتداهمه الحيرة وتستبد به الوساوس والظنون، وتشتعل في قلبه نيران الحسرة؛ وهو يبصر رعاية الملك - سبحانه - وعنايته به في كل الأحوال؟!

ولم لا يسلم نفسه إليه ويفوض أمره إليه، ويلجئ ظهره إليه، ويعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه؟

و(التفويض هو روح التوكل ولبُّه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلبًا واختيارًا، لا كرهًا واضطرارًا، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره: كل أموره إلى أبيه، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له، فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه) [1]

---

(1) المهذب من مدارج السالكين ص 210

واعجباه.. يدعي قلبك أنه متوكل على الله، ثم لا يرضى باختياراته!

أما علمت أن التوكل تفويض وثقة واطمئنان واستسلام!

أما مررت من قبل بمحنة عصيبة لم تجد - في وقتها - أي بادرة خير أو شعلة أمل، وظننت ساعتها أنها شرٌّ محضٌ، وأنها ستكون سببًا في تحطيمك وانهيارك، ثم تبين لك بعد وقت - طال أو قصر - أنها تحمل في طياتها خيرًا كثيرًا ولطفًا عظيمًا؟!

قصة موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح:

كثير من الناس ينظر إلى البلايا والمصائب من منظار ضيّق محدود، يقتصر فيه على رؤية مشهد واحد فقط من فصول المحنة؛ لأن نظرته قاصرة تتركز على اللحظة الحاضرة فقط، غافلًا عن أن هناك حكمة وراء الأحداث يترتب عليها نتائج لا تدخل في الحسبان ولا يتخيلها الفرد ذو العمر القصير والعقل القاصر.

ولعل في قصة موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح - في سورة الكهف (الآيات 60 - 82) - ما يكشف اللثام عن الحكم العظيمة التي كانت تختفي وراء هذه المواقف الثلاثة: (خرق السفينة– قتل الغلام– بناء الجدار) التي يبدو في ظاهرها الشر المحض، ولكنها تحمل في طياتها الرحمة والخير، فخرق السفينة رحمة من الله لأصحابها المساكين؛ لأنها بهذا الخرق سلمت من مصادرة الملك الظالم، ولو لم تخرق لصودرت. وقتل الغلام رحمة من الله لوالديه؛

حيـث سـيعوضهما خيـرًا منـه ولو لـم يقُتل لأرهقهمـا طغيانًـا وكفرًا. وبنـاء الجدار رحمـة مـن اللـه؛ لأنـه بـه يحفـظ كنـز الغلامين اليتميـن فـي المدينة، ولو لـم يُبن الجـدار؛ لانكشـف الكنـز وسـلبه البخلاء فـي القرية.

فكثيـرًا مـا تكـون الصـورة عطـاء، والمضمـون منعًـا وابتـلاء، وكثيـرًا مـا تكون الصـورة منعًـا والمضمـون عطـاءً وتكريمًـا. والعاقـل هو الـذي لا يجعل من نفسـه أسـيرًا للشـكل تائهًـا عـن المضمـون، ولكـن (أكثـر النـاس غافلـون عـن مجريـات القـدر الإلهي ينظرون إلى سـطوح الأحـداث.. تغرهم، تسـرهم، تزعجهم، ترضيهم، تغضبهـم.. لكـن كـم منهـم مـن يختـرق السـطح إلـى الأعمـاق، ويتجـاوز القشـور إلـى اللبـاب!. كـم مـن النـاس ينظر إلـى الأحـداث بعين الخضـر لا بعين موسـى - عليهمـا السـلام- !!) [1]

ويعجبني ما قاله د. مصطفى السباعي - رحمه الله -:

(يتسـاءلون عـن حكمتـك فـي المـرض والجـوع، والزلـزال والكـوارث، وموت الأحبـاء وحيـاة الأعـداء، وضعـف المصلحيـن وتسـلط الظالميـن، وانتشـار الفسـاد وكثـرة المجرميـن. يتسـاءلون عن حكمتك فيها؛ وأنت الـرؤوف الرحيم بعبادك؟ فيا عجبًا لقصر النظر ومتاهة الرأي! إنهم إذا وثقوا بحكمة إنسان سلموا إليه أمورهم، واستحسـنوا أفعاله وهم يعرفون حكمتها. وأنت الحكيم العليم.. الرحمن الرحيم.. اللطيـف الخبيـر.. يفقـدون حكمتـك فيمـا سـاءهم وضرهـم، وقـد آمنـوا بحكمتك

(1) لمسات قدرية في سورة يوسف ص15 بتصرف - د. مأمون جرار

فيما نفعهم وسرّهم.. أفلا قاسوا ما غاب عنهم على ما حضر؟ وما جهلوا ما علموا؟أم أن الإنسان كان ظلومًا جهولًا؟! [1]

تجري الأمورُ على وَفْقِ القضاءِ وفي	طَيِّ الحوادثِ محبوبٌ ومكروهُ
فربما سرني ما بِتُّ أحذَرُهْ	وربما ساءني ما بِتُّ أرجوهُ

من ثمرات الابتلاء:

عند فوات ما أحب وأشتهي أو تأخر ما أرجو وأتمنى؛ أسارع إلى ارتداء نظارتي الإيمانية التي تسمو بي عن الاستغراق في أسر اللحظة الحاضرة، وتفتح لي آفاقًا أوسع؛ لتلمس رحمة الله– تعالى - ولطفه وحكمته، مما يحول بيني وبين عواصف الهم والغم والحزن، وينحي عني أشباح الهواجس النفسية والوساوس الشيطانية.

(1) هكذا علمتني الحياة ص 45 - 46 بتصرف



وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ

(أروع ما في الرضا أنه يدفع سفينة القلب المكدود بتأثير قسوة الظروف وشدة الأزمات إلى شاطئ السكينة والطمأنينة غير عابئ بأمواج المحن وأعاصير الفتن.

ولله در القائل: (لو جُعلت لي دعوة مستجابة، ما سألت الفردوس؛ وإنما أسأل الرضا، فهو تعجيل الفردوس فى الدنيا) [1]

---

(1) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء

الرضا جنة الدنيا:

إن الإنسان في هذه الحياة الدنيا عرضة دائمًا لأن تصيبه النوائب والمصائب، سواء بموت عزيز عنده، أو بمرض مزمن، أو ألم مبرح، أو فقر مدقع، أو غير ذلك من المتاعب والآلام. ومن شأن المصائب أن تهز النفوس وتزلزلها، وما من إنسان لا يتأثر بما يصيبه ولو كان صلدَ المشاعر عديم الاكتراث، ولكن التأثر بالأحداث شيء، والوهن والجزع عند حلولها شيء آخر.

لذا جاء قول الله - تعالى -: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (التغابن:11)؛ بلسمًا شافيًا ودواءً ناجعًا يتناوله العبد في لحظات الشدائد والكربات، فيحفظه من آفات الجزع والسخط، ويعصمه من اليأس والقنوط عبر ما تغرسه في القلوب من الرضا والاستسلام لله - عز وجل - دون منازعة أو اعتراض!

وتأمل معي قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[1]:

---

(1) عن عَلْقَمَةَ: ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ قال: هُيَ الْمُصِيبَةُ تُصِيبُ الرَّجُل، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيُسَلِّمُ لها ويَرْضَى (رسائل ابن أبي الدنيا في الزهد والرقائق والورع ج1 / 166)

يهدي قلبه (ليقين) راسخ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيحارب بهذا اليقين وساوس الشيطان، ونزغات النفس الأمارة بالسوء.

يهدي قلبه (لزهد) يسمو به عن السقوط في مستنقع الهلع والحرمان عند فوات شهوات الدنيا وملذاتها.

ويهدي قلبه (لصبر) يعينه على تحمل صدمات الحياة ومصائبها طمعًا فيما عند الله من الأجر والثواب.

ويهدي قلبه (لشكر) يمنحه رؤية تربية الله له في المصائب، ونجاة له من براثن الغفلة.

ويهدي قلبه (لمحبة) تحول الطعم المر للمصائب إلى مذاق العسل المصفى.

ويهدي قلبه (لجنة دنيوية) لا يتصور تحققها إلا عبر بوابة الرضا والتسليم.

وماذا بقي في القلب من شوائب وأكدار بعد هذه الهداية العظيمة؟!

وهل يملك الشيطان التسلط على هذا القلب وإغرائه بالجزع والشك والسخط؟!

فما هو الرضا؟

ذكر الإمام القشيري في (الرسالة القشيرية) عدة تعريفات للرضا نقلها عن كبار الأئمة والتابعين، أذكر منها:

(قال أبو عمر الدمشقي: الرِّضا: ارتفاع الجزع في أيَّ حكم كان.

وقال ابن عطاء: الرضا: نظر القلب إلى قديم اختيار الله– تعالى - للعبد، وهو ترك التسخط.

وقال المحاسبي: الرضا: سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وقال النووي: الرضا: سرور القلب بُمرِّ القضاء.

وسئلت رابعة العدوية: متى يكون العبد راضيًا؟ فقالت: إذا سرته المصيبة كما سرَّته النعمة) [1]

وخلاصة القول: الرضا هو تقبل اختيار الله للعبد والموافقة عليه، وبكل ما ينزل بالعبد من شدة أو رخاء، عافية أو بلاء، منع أو عطاء، فهو لا يحزن على مفقود ولا يفرح بموجود، مصداقًا لقوله - عز وجل -: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ {57/22} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم ﴾ (الحديد:22).

وهذا يجعل العبد لا يرى في المنع أو البلاء أو المصائب أو الأمراض شرًّا يتطير به ويجزع منه، بل هو صقل وتطهير وتنقية واختبار.

دع الأيام تفعل ما تشاء	وطب نفسًا إذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالي	فما لحوادث الدنيا بقاء

(1) المقامات الإيمانية تهذيب الرسالة القشيرية ص 109 - 110 – محمد بن صالح فرحان

الرضا وسكينة النفس:

يرتبط الرضا ارتباطًا وثيقًا بالسكون والهدوء، فهو يمنح العبد السكينة والطمأنينة تحت ضربات القدر والأحكام، مهما بلغت شدتها في معترك الحياة، فالرضا (يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مُهلع من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واغتباط العبد بقسمه من ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضاه منه بما يجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا، واعتقاد حسن تدبيره، وكمال حكمته. ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره وتبرمه بأقضيته)[1]، كما أنه يهب المرء الاستقرار النفسي، فهو أحد المنجيات من دوامات الصراع النفسي التي يسقط فيها عامة الناس تحت ضغوط العديد من الآفات والأمراض النفسية كالقلق والطمع والحسد والحقد، والضيق والقنوط والشك والسخط.

وما أروع كلمات عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - والتي تنضح بأريج الرضا والتسليم:

(مَا أُبَالِي عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصْبَحْتُ، عَلَى مَا أُحِبُّ أَوْ عَلَى مَا أَكْرَهُ، وَذَلِكَ لأَنِّي لا أَدْرِي الْخَيْرَ فِيمَا أُحِبُّ أَوْ فِيمَا أَكْرَهُ) [2].

---

(1) المهذب من مدارج السالكين ص 231 - 232

(2) رسائل ابن أبي الدنيا في الزهد والرقائق والورع ج2 / 272

يـا لهـا مـن منزلـة سـامقة لا يصـل إليهـا إلا القلـوب التـي طرحـت همومها في حصـن التـوكل والثقـة والتفويض، فاسـتوى عندها المنع والعطاء، ففي كليهما رسـائل؛ لتدبـر لطـف اللـه– تعالى - ورحمتـه وحكمته.

وتتحقق السكينة في الرضا من خلال أمرين:

1 - التحرر من ضغط الشهوات والمطامع:

فالرضـا يحـرر النفـوس ويخلصهـا (مـن شـتى القيـود والضغـوط النفسـية والشـهوات، وكل ما من شـأنه أن يجعل العبد عبدًا للدنيا أو للغير أو للنفس، فقد يكـون العبـد أسـيرًا لمـا يفقده فيأسـى عليـه، أو يكون تواقًـا إلى ما يُعطـاه فيفرح بـه. وفـي رأيـي، أن العبـد فـي الحالتيـن أسـير!، فهـو فـي هذه أسـير الغـم والندم والخـوف، وفـي تلـك أسـير الهـم والحلـم والانتظـار. وهـذه الضغـوط والشـهوات تشـكل خطـرًا على باطن الإنسـان وظاهره، فتُفقـده اتزانه وسـكونه، توازنه وثباته، اسـتقامته واعتدالـه. فـإن مال: أُسـر بها وتعلق، فتسـلبه لُبّه وقلبـه وحريته، تُقيده فتملكـه، فـلا يملـك منهـا فـكاكًا، فيصبح فـي قلق دائـم وخوف متزايـد) [1].

فمـا أبعـد القلـوب المتعلقـة بالشـهوات عـن تـذوق حـلاوة الرضـا، وأنـى لهـا ذلـك وهـي لا تـرى الفـرح إلا فـي أوقـات العافيـة والعطـاء، ولا تـرى التعاسـة والشـقاء إلا عنـد فـوات المشـتهيات والحرمـان مـن المحبوبـات!

(1) مقام الرضا عند صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين ص 199 – محمد مختار مصلح

2 - التحرر من الأفكار السلبية:

الرضا يحرر النفس من الأفكار السلبية التي تتكاثر في لحظات الضعف؛ لتغري المرء بمزيد من التشاؤم والإحباط، ذلك أن الرضا يمنح المرء القدرة على التفكير الإيجابي الهادئ المتزن في كل المواقف والأحداث، فهو يجد دائمًا زاوية مضيئة في كل شيء، وجانبًا مريحًا في كل أمر، فيجد عطاءً مع كل منع، ولذة مع كل مرار، ويسرًا مع كل عسر، فهو يرى دائمًا النصف الممتلئ من الكوب، لذا فهو يحتفظ بتفاؤله مهما اسودت الدنيا أمام ناظريه؛ فهو دائمًا يحدث نفسه: (يا نفس) ﴿ لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللـهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة:51)، وهو حسبنا ونعم الوكيل؛ إذ هو قادر لا نهاية لقدرته، حكيم لا نهاية لحكمته، رحيم لا نهاية لرحمته. ومن كان بهذه الصفة، لحقيق أن تتكل عليه، وتفوض الأمر كله إليه، وكذلك توطن قلبك على ما يقضي الله لك؛ فهو الأوفق والأصلح، وأن ذلك لا يبلغ علمنا كيفيته وسره، وتقول: يا نفس، المقدور كائن لا محالة، فلا فائدة في السخط، والخَيْر فيما يصنع الله - عز وجل -، فلا وجه للسخط، ألست تقولين: رضيت بالله ربًّا، فكيف لا ترضين بقضائه!، والقضاء من شأن الربوبية وحقها؛ فعليك بالرضا).[1]

ولسائل أن يسأل: هل الرضا يتناقض مع الاحساس بالألم، ويشترط لتوافره عدم التألم أو الكراهة؟

والإجابة عند د. البوطي - رحمه الله -:

(إن الإنسان مهما وثق بأن كل ما يفد إليه من عند الله متفق مع الحكمة،

(1) منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين ص243 - أبو حامد الغزالي

يحمل إليه عاقبة الخير والرشد، ومهما تفاعل شعوره ويقينه بأن كل ما يأتي من المحبوب محبوب، فإن الجسد لابد أن يظل خاضعًا لقوانينه، يتألم مما يؤلم، ويلتذ بما هو ممتع، كذلكم النفس تضيق بالكرب وأسبابه، وتنتعش بالمبهجات وأسبابها. إذًا، فلا مطمع لغياب الألم عن الجسد، مما اقتضت سنة الله أن يتألم منه، مهما تحقق الرضا عن الله به، ومهما توافرت الثقة في النفس بحكمة الله ورحمته في كل ما يقضي به، ولكن لكل ذلك دورٌ كبيرٌ في تخفيف الآلام، إذ ثمّة فرق كبير بين حال من يعاني من ألم لا يعلم له مصدرًا ولا سببًا، وحال من يعاني من ألم يعلم أنه نتيجة عمل جراحي عاقبته العافية والشفاء، بل إنك لترى هذا الثاني، يتأوه من ألمه، ويشكر في الوقت ذاته طبيبه الذي تسبب له بذلك الألم). [1]

وهذا ما يؤكده أبو علي الدقاق: (ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء، إنما الرضا: أن لا تعترض على الحكم والقضاء).[2]

الطريق إلى الرضا:

وأحسب أن بلوغ شاطئ الرضا، يحتاج إلى أمرين:

أولًا: معرفة قوية راسخة بالله– تعالى - تقود القلب إلى حسن الظن به، وهذه المعرفة تتم من خلال ثلاثة محاور:

1. معرفة الله، بأسمائه وصفاته، في الخلق والملك، والقدرة والعطاء والمنع، والضر والنفع. فالمؤمن الذي اغترف قلبه من

(1) شرح الحكم العطائية ج 2 /520 - 521

(2) المقامات الإيمانية تهذيب الرسالة القشيرية ص 107

معيـن أسـماء اللـه الحسـنى وصفاتـه العلـى، تقـوده هـذه المعرفـة إلـى الرضـا عـن كل مـا يقـع لـه مـن أمـور، لعلمـه بـأن اللـه– تعالـى - لا يقضـي قضـاءً إلا وفيـه تمـام العـدل والرحمـة والحكمـة، فـلا يتهِـم ربـه فيمـا يجريـه عليـه مـن أقضيتـه وأقـداره، وذلـك يوجـب لـه اسـتواء الحـالات عنـده، ورِضـاه بمـا يختـاره لـه سـيده.

ولله در ابـن عـون - رحمـه الله - عندما قـال: (اعْلَمْ أَنَّ الْعَبْـدَ لَنْ يُصِيبَ حَقِيقَـةَ الرِّضَـا حَتَّـى يَكُونَ رِضَـاهُ عِنْـدَ الْفَقْرِ كَرِضَـاهُ عِنْدَ الْغِنَـى وَالْرخاء، كَيْـفَ تَسْـتَقْضِي اللَّـهَ (تطلـب قضائـه وحكمـه) فِي أَمْـرِكَ ثُمَّ تَسْـخَطُ إِنْ رَأَيْـتَ قَضَـاءَهُ مُخَالِفًـا لِهَـوَاكَ، وَلَعَـلَّ مَـا هَوَيْـتَ مِـنْ ذَلِـكَ لَـوْ وُفِّـقَ لَـكَ لَـكَانَ فِيـهِ هَلَكَتُـكَ.. وَتَرْضَـى قَضَـاءَهُ إِذَا وَافَـقَ هَـوَاكَ وَذَلِكَ لِقِلَّـةِ عِلْمِكَ بِالْغَيْـبِ وَكَيْـفَ تَسْـتَقْضِيهِ إِنْ كُنْـتَ كَذَلِـكَ، مَـا أَنْصَفْـتَ مِنْ نَفْسِـكِ، وَلَا أَصَبْـتَ بَـابَ الرِّضَا) [1]

2. معرفـة أن التدبيـر الإلهـي هو خيـر تدبير على الاطـلاق ﴿إِنَّ اللَّـهَ كَانَ لَطِيفًـا خَبِيـرًا ﴾ (الأحزاب:34)، وأن كل شـيء خاضـع لاختيـاره ولمشـيئته وحكمته.

وما أجمل ما قاله الإمام ابن القيم - رحمه الله -:

(مـن تـرك الاختيـار والتدبيـر فـي رجـاء زيـادة أو خـوف أو نقصـان أو طلـب صحـة أو فـرار مـن سـقم، وعلـم أن اللـه - تعالـى - علـى كل شـيء قديـر، وأنـه المتفـرد بالاختيـار والتدبيـر، وأن تدبيـره لعبـده خيـر مـن تدبيـر العبـد لنفسـه، وأنـه

(1) رسائل ابن أبي الدنيا في الزهد والرقائق والورع ج1 / 184

أعلـم بمصلحتـه مـن العبـد، وأقـدر علـى جلبهـا وتحصيلهـا منـه، وأنصـح للعبـد منـه لنفسـه، وأرحـم بـه منـه لنفسـه، وأبـر بـه منـه بنفسـه، وعلـم مع ذلـك أنه لا يسـتطيع أن يتقـدم بيـن يـدي تدبيـره خطـوة واحـدة، ولا يتأخـر عـن تدبيـره لـه خطـوة واحدة؛ فألقـى نفسـه بيـن يديه، وسـلم الأمـر كله إليـه، وانطرح بيـن يديه انطراح عبـد مملوك ضعيـف بيـن يـدي ملـك عزيز قـوي قاهر، لـه التصـرف في عبده بـكل ما يشـاء، وليس للعبـد التصـرف بوجـه من الوجـوه) [1].

3. معرفـة بالعدالـة الإلهيـة ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: 46)، فبقدر معرفة العبـد بعـدل مـولاه، وبأنـه أحكـم الحاكمين؛ بقدر ما يسـتقبل حكمـه النافذ فـي هـدوء، ويرضـى بقضائه العالي في سـكون.

ثانيًا: معرفة قيمة الحياة الدنيا، وعدم الاغترار بها:

إن العبـد عندمـا يـدرك القيمـة الحقيقيـة للدنيـا، وأنهـا مجـرد لعـب ولهـو، لا قيمـة لهـا ولا وزن إلا بقـدر مـا تعينـه وتقربـه مـن اللـه- تعالـى - وتبلغـه رضـاه؛ تتضـاءل قيمتهـا فـي حسـه حتـى يتسـاوى فيهـا كل شـيء، سـواء بسـواء، مـا يفوتـه منهـا أو يصيبـه، مـا يُعطـاه منهـا أو يمنـع عنـه، فـلا يحـزن علـى هـذا أو يفـرح بـذاك. (فمـن البديهـي أنـه كلمـا احتلـت الدنيـا قيمـةً ومقـدارًا لـدى الإنسـان، خاصـةً قلبـه لا يـده أو عقلـه، وكانـت تهمـه وتشـغله، فإنـه لا يسـتوي لديـه المنـع والعطـاء أو فقدهـا ووجودهـا، إقبالهـا أو إدبارهـا، فيحـزن علـى مـا يفوتـه، ويفـرح بمـا يأتيـه، فيكـون دائمًـا فـي سـخط أو تمـنّ وقنـوط أو انتظـار، ومـن ثـم يصاحبـه الأسـى والحـزن والقلـق. أمـا إذا أصبـح لا يبالـي بمـا فيهـا أو

---

(1) فوائد الفوائد ص74

بمـن فيهـا، وتسـاوت لديـه الأمور من منـع وعطاء وغيـره، فإن هذا التسـاوي وهذه اللامبـالاة بها تُدخله إلـى الرضا)[1].

من ثمرات الابتلاء:

فـي حصـن الرضـا يعيـش المؤمـن فـي حمايـة وأمـان مـن هجمـات القلـق المفترسـة أو غـزو الهمـوم الموجعـة؛ لأنه ركـن إلـى حمـى القيـوم - عـز وجـل -، ووثـق فـي تدبيـره وحكمتـه، وأيقـن بلطفـه ورعايتـه.. وهـل يطفـىء نيـران حسـرات النفـوس علـى فـوات منفعـة حاضـرة أو مصلحـة عاجلـة إلا الرضـا عـن اللـه– تعالـى - وحسـن الظـن بـه واليقيـن بقضائـه!

(1) مقام الرضا عند صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين ص 180



إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ

(القـدر لا يجـري حسـب تدبيـرك، بـل أكثـر ما يكـون مـا لا تدبير لك فيـه، وأقـل مـا يكـون مـا أنـت لـه مدبـر، والعاقـل لا يبنـي علـى غير قـرار ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّـهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّـهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّـهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق:3). ربمـا دبـرت أمـرًا ظننـت أنـه لك، فـكان عليـك.. ربمـا كَمُنَـت المنن فـي المحـن، والمحن فـي المنن.. علمـك بأنـك ملـك للـه، وليـس لـك تدبيـر مـا هـو لغيـرك، فمـا ليس لـك ملكـه ليـس لـك تدبيره.. علمـك بأنك فـي ضيافة اللـه؛ لأن الدنيا دار اللـه، وأنـت نـازل فيهـا عليـه، ومـن حـق الضيـف ألا يعـول همًّـا مع رب المنـزل) [1]

---

(1) التنوير في إسقاط التدبير بتصرف - ابن عطاء الله السكندري

وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ:

إن اللـه– سـبحانه - مالـك الملـك، يتصـرف فيـه بمقتضى حكمته ومشـيئته، وكل تصـرف منـه إنمـا يجـري وفـق مشـيئته التـي وضعهـا فـي الكـون، وقوانينـه المضطـردة فـي الوجـود، فهـو سـبحانه بيـده الأمـور كلهـا خيرهـا وشـرها، يعطـي ويمنـع، ويعـز ويـذل، وينفـع ويضر، لأنه القادر على كل شـيء، يتصـرف في ملكه كيفمـا شـاء بمقتضـى الحكمـة والرحمـة، فمـا مـن ذرة فـي السـماء أو فـي الأرض إلا وهـي فـي علـم اللّـه، وفـي تصريـف قدرتـه، وإلا هـي آخـذة مكانهـا فـي هـذا الوجـود، كمـا يأخـذ كل عضـو فـي الجسـد مكانـه منه.

قال الله - عز وجل -: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: 49)

(كل شـيء.. كل صغيـر وكل كبيـر.. كل ناطـق وكل صامـت.. كل متحرك وكل سـاكن.. كل مـاض وكل حاضـر.. كل معلـوم وكل مجهـول. كل شـيء خلقنـاه بقدر. قـدر يحـدد حقيقتـه.. ويحـدد صفتـه.. ويحـدد مقـداره.. ويحـدد زمانـه.. ويحـدد مكانـه.. ويحـدد ارتباطـه بسـائر مـا حولـه مـن أشـياء.. وتأثيـره فـي كيـان هـذا الوجود.

إن حركـة هـذا الكـون كلـه بأحداثهـا ووقائعهـا وتياراتهـا مقـدرة مدبـرة صغيرهـا وكبيرهـا. كل حركـة فـي التاريـخ ككل انفعـال فـي نفس فـرد، ككل نفس يخـرج مـن صدر!

إن هـذا النفـس مقـدر فـي وقتـه، مقدر فـي مكانه، مقـدر في ظروفـه كلها، مرتبـط بنظـام الوجـود وحركـة الكـون، محسـوب حسـابه فـي التناسـق الكونـي، كالأحـداث العظـام الضخـام! تقديـر فـي الزمـان، وتقدير فـي المـكان، وتقدير في المقـدار، وتقديـر فـي الصـورة. وتناسـق مطلـق بين جميـع الملابسـات والأحوال)[1]، فـلا شـيء فـي الوجـود يحـدث مصادفـة، ولا شـيء يحـدث جزافًـا بلا حسـاب، ولا شـيء يحـدث بـلا غاية.

إن (القـدر فـي حـس الإنسـان حقيقـة هائلـة، رهيبـة مخوفـة، مرتقبـة ومتقـاة! ذلـك أنهـا تتصـل بالقـوة التـي تدبر الكـون وتصرف الحيـاة.. القـوة التي تمنـح وتمنع، وتسـعد وتشـقي، وتفْـرِح وتحـزِنْ، وتأخـذ وتعطـي، وتعـذِّب وترضِـي، وتحـرِم وتغدق، وتهـب الحيـاة وتأخـذ الحياة! وتتصـل في الوقت ذاتـه بالمجهول.. بالغيـب المحجوب عـن الأبصـار.. وتتلفـع بالكتمـان لا تفصـح عـن سـرها قبـل أن تقـع، وقـد تقـع وهـي مـع ذلـك مغلفـة بالأسـرار! شـيء هائل رهيـب.. لا جـرم يشـعر الإنسـان إزاءه بالضآلة والانحسـار!) [2].

حقيقة القضاء والقدر:

القضـاء: هـو علـم اللـه الأزلـي بـكل مـا سيجري في الكـون فـي المسـتقبل من الحـوادث الطبيعيـة، والتصرفـات البشـرية سـواء القسـرية منهـا (مـن ولادة ومـوت وأمـراض وعاهـات ومصائـب)، والاختياريـة (التـي تصـدر بكسـب الإنسـان وإرادتـه كالأنشـطة التجاريـة والزراعيـة والاجتماعيـة علـى اختلافهـا، والطاعـات والقربـات الدينيـة مـن صـلاة وصيـام وحـج ونحـو ذلـك).

(1) في ظلال القرآن ج3436/6

(2) منهج الفن الإسلامي ص97 – محمد قطب

والقـدر وقـوع الأشـياء وجريانهـا، طبقًا لعلـم الله الأزلي بهـا، إذًا فالقضاء هو علـم الله بكل ما سـيجري مسـتقبلًا، والقدر هـو المرحلة التنفيذيـة لذلك المعلوم الـذي كان مخبـوءًا في غيبـه - عز وجل.

وعلـم اللـه - سـبحانه - بمـا سـيقع، ووقوعـه حسـب هـذا العلـم لا تأثيـر له فـى إرادة العبـد، فـإن العلـم صفـة كاشـفة وليسـت صفة مؤثـرة (أي أنها أشـبه ما تكـون بالمصبـاح إذا يكشـف كل شـيء أمامـه علـى مـا هـو عليـه، دون أن يحدث أي تغييـر أو تأثيـر فيـه). فمثـلًا، علـم الإنسـان بـأن ابنه ذكـي مقبل على دروسـه، ومسـتوعب لهـا حفظًـا وفهمًـا، ليـس لـه تأثير فـي نجاحه.

قـال الخطابـي: (قد يحسـب كثيـر من النـاس أن معنى القضاء والقـدر إجبار اللـه - سـبحانه - العبـد علـى مـا قدره وقضـاه!. وليس الأمـر كما يتوهمـون؛ وإنما معنـاه الإخبـار عـن تقـدم علـم اللـه - سـبحانه - بمـا يكـون مـن اكتسـاب العبـد، وصدورهـا عـن تقدير منـه) [1].

من أسرار القدر وحكمته:

قال الله - عز وجل -:

﴿ مَـا أَصَـابَ مِـن مُّصِيبَـةٍ فِـي الْأَرْضِ وَلَا فِـي أَنفُسِـكُمْ إِلَّا فِـي كِتَـابٍ مِّـن قَبْـلِ أَن نَّبْرَأَهَـا إِنَّ ذَلِـكَ عَلَـى اللـهِ يَسِـيرٌ {57/22} لِكَيْـلَا تَأْسَـوْا عَلَـى مَـا فَاتَكُـمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُـمْ وَاللـهُ لَا يُحِـبُّ كُلَّ مُخْتَـالٍ فَخُـورٍ ﴾ (الحديد 22 - 23)

---

(1) شرح النووي على صحيح مسلم ج154/1

(إن هـذه العقيدة إذا رسـخَتْ في نفسـك وقـرَّت في ضميرِك صـارتْ البليةُ عطيةً، والمِحْنـةُ مِنْحـةً، وكلُّ الوقائـع جوائـز وأوسـمةً، (ومـن يُـرِدِ اللهُ بـه خيرًا يُصِـبْ منه)، فلا يصيبُـك قلـقٌ مـن مـرضٍ أو مـوتِ قريبٍ، أو خسـارةٍ ماليـةٍ، أو احتـراقِ بيتٍ؛ فـإنَّ الباري قـد قـدَّر والقضـاءُ قد حـلَّ، والاختيـارُ هكـذا، والخيرةُ للـهِ، والأجـرُ حصل، والذنـبُ كُفِّر. هنيئًـا لأهـلِ المصائـب صبرهـم ورضاهـم عـن الآخـذِ، المعطـي، القابـضِ، الباسـط، ﴿ لَا يُسْـأَلُ عَمَّـا يَفْعَـلُ وَهُـمْ يُسْـأَلُونَ ﴾. ولـن تهـدأ أعصابُـك وتسـكن بلابـلُ نفسِـك، وتذْهـب وسـاوسُ صـدْرِك؛ حتـى تؤمـن بالقضـاءِ والقـدرِ، جـفَّ القلـمُ بمـا أنـت لاقٍ فـلا تذهـبْ نفسُـك حسـراتٍ. لا تظـنُّ أنـه كان بوسـعِك إيقـافُ الجـدار أن ينهـار، وحبْـسُ المـاءِ أنْ ينْسـكِب، ومَنْـعُ الريـحِ أن تهـبّ، وحفـظُ الزجـاج أن ينكسـر، هـذا ليـس بصحيـحٍ علـى رغمـي ورغمـك، وسـوف يقـعُ المقـدورُ، وينْفُـذُ القضاءُ، ويحِـلُّ المكتـوبُ) [1].

علـى أننـا فـي حياتنـا الدنيـا قد نواجـه الكثير من الأقـدار، التي تبـدو مؤلمة وقاسـية فـي ظاهرهـا ولا نملـك لها أي تفسـير ولا نلمح فيها أي حكمة، ونتسـاءل: (لمـاذا اختطـف المـوت تلـك الطفلـة البريئـة التي ليس لهـا «ذنـب"، والتي كانت وحيـدة أبويهـا، المتعلقيـن بهـا، تتمثل فيها بالنسـبة إليهما كلُّ معانـي الحياة!؟

ولمــاذا اختطــف المــوت ذلــك الرجــل وهــو العائــل الوحيــد لأســرته، لا موئــل لهــم غيــره، وهــم عديــد مــن زوجــة وأطفــال وأقربــاء!؟، لمــاذا انتصــر الشــر علــى الخيــر، فيئــس النــاس مــن مصيــر الخيــر علــى الأرض،

(1) لا تحزن ص46 – د.عائض القرني

وتهـاوت نفوسـهم، واندفعـوا فـي طريـق هابـط، لا يعملـون لنصـرة الحـق ولا يتورعـون عـن ارتـكاب الآثـام!؟

لمـاذا رزق هـذا الرجـل الصالـح بولد مجرم يعيث فسـادًا فـي الأرض، ويهلك الحرث والنسـل؟

لمـاذا غرقـت هـذه السـفينة واحترقـت هـذه الطائـرة، ووقـع ذلـك الزلـزال المدمـر العنيـف؟

لماذا عاش هذا الطفل وقد مات أبواه في الحادثة، وليس له من يرعاه؟

لمـاذا يظـل هـذا الشـيخ حيًّـا، وقـد هـدَّه المـرض والعجـز والشـيخوخة، ويمـوت ذلـك الشـاب الصاعـد نحـو القمـة الممتلـئ بالحيـاة؟

وألـوف مـن الأسـئلة وألـوف مـن التعجبات.. لا يـدرك البشـر كُنهَهَـا؛ فتتمثل لهـم قسـوة القـدر فـي تصريف الأمـور، أو يتمثـل لهم كأنـه يخبط خبط عشـواء.. إن القـدر الـذي يصـرف حيـاة النـاس هـو إرادة اللـه وهـو الحـق، وهـو لا يجـري بالظلـم، فالظلـم محـال على الله. وهـو لا ينهي الأمور في هـذه الأرض؛ لأن الأرض ليسـت نهايـة الحيـاة، واقتطاعهـا وحدهـا مـن الصـورة يفسـد مـا فيهـا مـن الحق، ويخـلّ بالنسـب والموازيـن. والبشـر لا يدركـون حقيقـة الصـورة؛ لأنهـم يقطعـون رباطاتهـا، وينظـرون إليهـا أجـزاء وتفاريـق، ينظـرون إلى حيـاة فرد بعينـه أو حياة جيـل، ويقفـون عنـد الحـادث المفرد كأنـه المقطع الأخيـر في الصـورة، أو يقفون عنـد هـذه الأرض فـلا تتبيـن لهـم الملامـح، ويظنونـه خبـط عشـواء. لمـاذا ماتـت

الطفلـة، ولمـاذا عـاش الشـيخ، ولمـاذا وقـع الزلـزال، ولمـاذا هـزم الحـق وانتصـر الطغيـان؟!) [1]

وقـد عـرض اللـه - تعالـى - علينـا فـي (قصة يوسـف) - عليـه السـلام - طرفًا مـن لمسـات القـدر الإلهـي التـي تتجاوز حـدود الزمـان والمـكان؛ ليعلمنـا أن كل شـيء بقـدر؛ لنسـلم الأمـر لصاحـب الأمـر، وتطمئـن قلوبنا وتسـتريح، وتسـير مع قـدر اللـه فـي توافـق وفي تناسـق، وفي أنـس بصحبة القـدر في خطـوه المطمئن الثابـت الوثيق.

(مـن ذا الـذي يذكـر - مثـلًا - أن زواج يعقوب(عليـه السـلام) مـن امـرأة أخـرى هـي أم يوسـف وبنياميـن أخيـه، لـم يكـن حادثًـا شـخصيًّا فرديًّـا.. إنما كان قـدرًا مقـدورًا ليحقـد إخـوة يوسـف - مـن غيـر أمـه - عليـه؛ فيأخـذوه فيلقوه في الجـب - ولا يقتلـوه - لتلتقطـه السـيارة، لتبيعـه فـي مصر. لينشـأ في قصـر العزيز لتـراوده امـرأة العزيـز عـن نفسـه، ليسـتعلي علـى الإغـراء، ليلقـى فـي السـجن. لمـاذا؟ ليتلاقـى فـي السـجن مـع خادمـي الملـك. ليفسـر لهمـا الرؤيا..لمـاذا؟ إلى تلـك اللحظـة لا يوجـد جـواب! ويقـف نـاس مـن النـاس يسـألون: لمـاذا؟ لمـاذا يـا رب يتعـذب يوسـف؟ لمـاذا يـا رب يتعـذب يعقـوب؟ لمـاذا يفقـد هـذا النبـي بصـره مـن الحـزن؟ ولمـاذا يسـام يوسـف الطيـب الزكـي كلَّ هـذا الألـم، المنـوع الأشـكال؟ لمـاذا؟. ولأول مـرة تجـيء أول إجابـة بعـد أكثـر مـن ربـع قـرن فـي العـذاب؛ لأن القـدر يعـده ليتولـى أمـر مصـر وشـعبها، والشـعوب المجـاورة فـي

---

(1) منهج الفن الإسلامي ص99 - 105 بتصرف

سنين القحط السبعة! ثم ماذا؟ ثم ليستقدم أبويه وإخوته؛ ليكون من نسلهم شعب بني إسرائيل. ليضطهدهم فرعون؛ لينشأ من بينهم موسى - وما صاحب حياته من تقدير وتدبير - لتنشأ من وراء ذلك كله قضايا وأحداث وتيارات يعيش العالم فيها اليوم بكليته! وتؤثر في مجرى حياة العالم جميعها!) [1]

ولقد ذكر الشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله - واقعة رائعة تبين خطأ الناس عندما يقيموا أقدار الله وفق مقاييس العدالة البشرية، فيقول:

(جاء يوم كنت فيه في المدرسة، وكنت أؤدب تلميذًا بالضرب، (وكان الضرب من وسائل التأديب في تلك الأيام)، ففجر الولد وتوقح، وجعل يصرخ، ويقول: "هذا ظلم.. أنت ظالم.."!!.

ثقوا يا أيها القراء، أني لما سمعت ذلك سقطت العصا من يدي، ونسيت الولد والمدرسة، ورأيت كأني كنت في ظُلمة فأضيء لي مصباح منير، فقلت لنفسي: إن التلميذ يرى ضربي إياه ظلمًا، وأنا أراه عدلًا، والعمل واحد، وإذا ذهب يشكو إلى أهله، قالوا له: لا ما هذا ظلم، هذا عدل، إنه يضربك لمصلحتك. فإذا كان التلميذ لا يحق له أن يطبق مقاييسه الناقصة على عدالة المعلم، فكيف أطبق أنا مقاييسي البشرية للعدالة على الله– تعالى -!!.

---

(1) في ظلال القرآن ج3441/6

ألا يمكـن أن يكـون الفعـل الـذي أراه ظلمًـا هو عيـن العدل؟ الولـد المريض يـرى الإبـرة التـي يدخلهـا الطبيـب تحت جلده ظلمًـا، وهي فـي رأي أبيه عدل كل العـدل؛ لأن الولـد نظـر إلـى ألمهـا، والأب أبصر أثرها في شـفاء الولد.

إن القاضـي لا يسـتطيع أن يحكـم في دعـوى حتى يطلع علـى مراحلها كلها، ووقائعهـا جميعًـا، ونحـن إنمـا نطلـع غالبًـا على طرف مـن الواقع، ونصـدر أحكامًا خاطئـة، بعد دراسـات ناقصة.

لـو تهـت أنـت ورفيقـك فـي الصحـراء، فمـرت سـيارة فخمـة، دعاكمـا صاحبهـا، وأركبكمـا فيهـا، فأخـرج صديقك سـكينه فمزق جلد المقعـد، ألا ترى عملـه ظلمًـا؟ إنـه ظلم بلا شـك، ولكـن إذا علمـت أن أمامك عصابـة من قطاع الطريـق، كلمـا رأوا سـيارة سـليمة أخذوهـا، وإن كانت ممزقـة المقعد تركوها، ألا يتحـول هـذا الفعـل فـي نظـرك مـن ظلم إلـى عدل؟

بـل إن صاحـب السـيارة لـو عـرف هـذه الحقيقـة؛ لمـزق جلـد مقعدهـا بنفسـه؛ لأنـه يفضـل أن تبقـى السـيارة لـه، ومقعدها ممـزق، عن أن تذهـب كلها وهـي سـليمة؟ أليـس هـذا صحيحًا؟ هذه هـي قصة الخضر وموسـى، لمـا ركبا في السـفينة وخرقهـا، ضربهـا اللـه مثلًا، نفهـم منه ألّا نسـرع إلى إصـدار الأحكام قبل الإحاطـة بالوقائع) [1]

(1) تعريف عام بدين الإسلام ص 127

الإيمان بالقدر مفتاح السعادة وراحة البال:

من أعظم ثمار الإيمان بالقدر شعور المؤمن به براحة النفس، وسكينة القلب، فقد علم علم اليقين: أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما كتب الله– تعالى - له من عافية لابد أن يدركه، وما قدر له من بلاء لن يفر منه، فلا تعبث به رياح الشك، ولا عواصف القلق. فلا يتحسر على ما فاته ولا يخاف مما ينتظره. وكيف يحزن أو يسخط وهو يوقن أن ما أصابه إنما هو نتيجة لقضاء الله وحكمه الذي لا بدّ أن يلحقه ويقع به أينما ذهب، وبأي حيلة أو سبب تمسك، فهو مطمئن إلى النتائج مهما كانت، ملتزم بوصية رسول الله ﷺ التي يقول فيها: (.. وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)[1].

وبهذه العقيدة ربى النبي - عليه الصلاة والسلام - أصحابه، فقد قال لابن عباس - يومًا: (يا غلام، ألا أُعلِّمُك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك

(1) رواه مسلم 2664

بشـيء، لـم يضـروك إلا بشـيء قـد كتبـه اللـه عليـك، رُفِعـت الأقـلام وجَفَّـت الصحـف) [1]

وهـي - أيضًـا - وصيـة عبـادة بـن الصامـت - رضـي اللـه عنه - لابنـه: (يا بنـي، إنـك لـن تجـد طعـم الإيمان حتـى تعلم أن مـا أصابك لم يكـن ليخطئك، ومـا أخطـأك لـم يكـن ليصيبك، فإني سـمعت رسـول اللـه ﷺ يقـول: إن أول مـا خلـق اللـه القلـم، قـال لـه: اكتـب، فقـال: يـا رب ومـا أكتـب؟ قـال: اكتـب مقاديـر كل شـيء حتـى تقـوم السـاعة. يا بني، إني سـمعت رسـول الله - ﷺ - يقـول: مـن مـات علـى غير هـذا فليس منـي) [2]

يقول محمود الوراق:

ليـس عنـدي إلا الرضـا بقضائــ	ـــه فيــما أحببتُــه أو كرهتُــه
لـــوليِّ الأمـــور يختـــار منهـــا	خيرَهــا لي عواقبًــا مــا عرفتــه
فـــأرى أن أردَّ ذاك إلى مـــن	عنــده العلــم الــذي قــد جهلتــه

(1) أخرجه الترمذي (2516)، وأحمد (2802)، وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح"

(2) رواه أبو داوود (4700)

من ثمرات الابتلاء:

وهـي وصيـة الشـيخ عبـد القـادر الجيلانـي - رحمـه اللـه - إليك:

(أحسـن الأدب ولا تتهـم مـولاك، فـكل شـيء عنـده بمقـدار، لا مقـدم لمـا أخّـر، ولا مؤخـر لمـا قـدّم، يأتيـك مـا قـدّر لـك عنـد وقتـه وأجله إن شـئت أو أبيت، لا تشـره (الشـره= شـدة الحـرص) علـى مـا سـيكون لـك، ولا تطلـب وتلهـف علـى مـا هـو لغيـرك، فمـا ليـس هـو عنـدك لا يخلـو إمـا أن يكـون لـك أو لغيـرك، فـإن كان لـك فهـو إليـك صائـر، وأنـت إليـه مقـاد ومُسـير، فاللقـاء عـن قريـب حاصـل، ومـا ليـس لـك؛ فأنـت عنـه مصـروف، وهـو عنك مـولٍّ، فأنى لكمـا التلاقي، فاشـتغل بإحسـان الأدب فيمـا أنـت بصـدده مـن طاعـة مـولاك - عـز وجـل - فـي وقتـك الحاضـر، ولا ترفـع رأسـك ولا تمـدّ عنقـك إلى مـا سـواه)[1].

(1) فتوح الغيب ص57 - تحقيق د. جمال الدين الكيلاني



وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

(المصائب التي لا تمس الدين في حقيقة الأمر ليست بمصائب؛ لأن قسمًا منها: تنبيه رحماني يبعثه الله- سبحانه - إلى عبده؛ ليوقظه من غفلته، بمثل تنبيه الراعي لشياهه عندما تتجاوز مرعاها، فيرميها بحجر، والشياه بدورها تشعر أن راعيها ينبهها بذلك الحجر ويحذرها من أمر خطير مُضِر؛ فتعود إلى مرعاها برضى واطمئنان. أما القسم الآخر من المصائب فهو كفارة للذنوب) [1].

---

(1) كليات رسائل النور ج 3 اللمعات ص 16

مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ[1]:

إن المؤمـن الـذي امتـلأ قلبـه بمعرفـة اللـه– تعالـى - يرى فيمـا يصيبه من مصائـب وشـدائد؛ أنهـا لـون من ألـوان التربية الربانيـة له نتيجة معصيـة ارتكبها أو شـهوة محرمـة اقترفهـا أو تقصيـر فـي الطاعـات بـدر منـه، ذلك لأنـه يعلم أن المصائـب والشـدائد، والفقـر والأمراض، إن هـي إلا أدوية وعلاجات تنبه الشـارد وتوقـظ الغافـل وتقـوده إلـى محـراب التوبة والندم، وقـد يتألم المـرء في باديء الأمـر، ويتسـاءل عـن الحكمـة فـي هـذه المحنـة، ثـم يظهـر لـه بعـد إفاقته من غفلتـه وتحـرره مـن أسـر شـهوته أن الشـدة التـي حاقـت بهـا إن هـي إلَّا محض رحمـة وفضـل وإحسـان مـن اللـه– تعالـى - تعيـده إلـى طريـق الإيمان وسـبيل الحـق. قـال اللـه - عـز وجـل -: ﴿ وَمَـا أَرْسَـلْنَا فِـي قَرْيَـةٍ مِّـن نَّبِـيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَـا أَهْلَهَـا بِالْبَأْسَـاء وَالضَّـرَّاء لَعَلَّهُـمْ يَضَّرَّعُـونَ ﴾ (الأعراف:94)

---

(1) وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نُمَيْر، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ قَالَ: أخْبِرْتُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ الصَّلَاحُ بَعْدَ هذه الآية: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} فَكل سُوءٍ عَمِلْنَاهُ جُزِينَا بِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "غَفَر اللَّهُ لكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، ألستَ تَمرضُ؟ ألستَ تَنْصَب؟ أَلَسْتَ تَحْزَن؟ أَلَسْتَ تُصيبك اللَّأْوَاءُ؟ " قَالَ: بَلَى. قَالَ: "فهو ما تُجْزَوْنَ به"(تفسير ابن كثير ج3 /417)

إن مـن شـأن الشـدائد أن تصفّـي النفـوس مـن شـوائب الضـلال العالقـة بهـا، وتنقـي القلوب من الوسـاوس المسـتولية عليها، وتكشـف عن العقـول الظلام المحيط بهـا، وتبعـد المـرء عن جـوّ الغفلة واللامبـالاة، الذي تسـتدعيه حالة الأمـن والطمأنينة والاسـترخاء الذاتـي للنعيـم وللراحـة اللاهيـة، فـإذا هزّتـه المصائـب والفواجـع؛ شـعر بحاجتـه اللجـوء إلـى اللـه والانطـراح علـى أعتابـه.. فمـا يأخـذ اللـه بـه الغافليـن من الشـدائد والمحـن ليـس مـن أجـل التسـلية والتشـفي - تعالى اللـه عن ذلـك - ؛ وإنما مـن أجـل أن تـرق القلوب الجامدة، وتتعظ المشـاعر الخامدة، ويتجه البشـر الضعاف إلـى خالقهـم، يتضرعـون إليـه ويسـتغفرونه، عمـا فـرط منهم مـن خطايا.

وقـال سـبحانه فـي موضع آخـر: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَـادُ فِـي الْبَرِّ وَالْبَحْـرِ بِمَا كَسَـبَتْ أَيْدِي النَّـاسِ لِيُذِيقَهُـم بَعْـضَ الَّذِي عَمِلُـوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ ﴾ (الروم:41)

فاللـه - تعالـى - لا يريـد الانتقـام مـن عبـاده، عندمـا يسـلط عليهـم آثـار أعمالهـم، وإنمـا هـي بمنزلـة السـوط يؤدبهـم بـه، عسـى أن يغيـروا ما بأنفسـهم، ويعـودوا إلـى صـراط اللـه الحميـد، فيبسـط لهم من جديد بسـاط نعمتـه، ويخلع عليهـم رداء رحمتـه.

قال النبي - عليه الصلاة والسلام -:

(مـا يُصيـبُ المؤمـنَ مـن نصَبٍ(تعـب)، ولا وصَـبٍ (وجـع) ولا هـمٍّ ولا حـزَنٍ، ولا أذًى ولا غـمٍّ، حتـى الشـوكَة يُشـاكها؛ إلا كفَّـرَ اللـهُ بهـا مـن خطايـاه) [1]

(1) رواه البخاري (5641) ومسلم (2573)

(فكمـا يتـأذّى المؤمـن إذا عَضّـه الشـر بنابه فأنهكـه، فإنّه - أيضًا - يستبشـر بـه طُهـرة لنفسـه مـن أثقـال الذنـوب وأحمـال الخطايـا، حتّـى إذا قـدِم علـى ربّه يـوم الجـزاء، غُمِـس فـي النعيـم المقيـم فـلا وجع معـه ولا بعـده، لذّة مشـرقة بلا كـدور ومتعـة باقيـة فلا فتـور) [1]

ومـا أجمـل قـول الفضل بن سـهل - رحمه الله -: (إن فـي العلل (أي الأمراض والأسـقام) لنعَـمٌ لا ينبغـي للعاقـل أن يجهلهـا، فهـي تمحيـص للذنـوب، وتعـرّض لثـواب الصبـر، وإيقـاظ مـن الغفلـة، وتذكيـر بالنعمة في حـال الصحة، واسـتدعاء للتوبـة، وحضّ علـى الصدقة)

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ:

(كثيـرًا مـا ينغمـس الإنسـان المغـرور بالمتـع واللذائـذ القريبـة الماتعـة، فـي بحر الغوايـة، ويوغـل فـي طريـق التيـه والإعـراض عـن أمر اللـه– تعالـى-؛ فلا يرى فـي اللذة الحرام ما يسـتنكره مادامت تروي غلّته وتشـبع نهمته، ولا يرفع رأسـه إلى السماء للتفكّر سـاعة أو لمراجعة النفس لحظة، فقد غطّى ران الفتنة قلبه؛ فهو لا يسـمع غير حسـيس المتعـة الحـرام ولا يرى غير بارقة اللذة النجسـة. هنا، تأتيه لسـعة الألـم الحارقة، كمرض أو فقـد مـال أو عيـال، فترتـاع النفـس وتتألّـم، وتهـزّه البليّـة هـزًّا وترجّه رجًّـا؛ لتنزع عن قلبـه قشـور الفتنـة الرابضـة علـى مسـام الإحسـاس في صـدره، فتنفتـح عينه علـى حاله البئيـس وإيمانـه المهـدر المسـفوح علـى أعتـاب شـهوته الجامحـة، فيرفـع يـد الضراعة

(1) مشكلة الشر ووجود الله ص 135 - د. سامي عامري

طلبًا للصفح والمغفرة)[1]، ويبادر إلى التوبة ويقف في مقام الاعتذار والانكسار موقنًا أنه لا يرفع المصيبة إلا خالقه، ولا يقيه شرَّها سواه.

وهكذا، فالمصائب جرس إنذار تهز الغافل حتى يدرك عجزه، ويتخلى عن غروره، ويخفف من طغيانه، وتذكره بأن الفرار إلى الله– تعالى - هو الحصن الآمن الذي يحميه من شرور المعاصي والآثام، ويقيه من لفحات الذنوب ونيرانها.

فمتى عاقبك الله - تعالى - عند أدنى زلة أو هفوة، فاعلم أنك كريم عنده يبتليك؛ ليهذبك، ويطهرك من أدرانك، ويُذكرك بشؤم ذنوبك، حتى لا تسقط في فخ التمادي والإصرار، فهي وإن كانت مصائب وشدائد في ظاهرها، إلا إنها نعم وألطاف في حقيقة الأمر وباطنه.

أخي،

(أتظن أن المريض يمرض، وأن الغني يفتقر، وأن الهم والغم ينزل، وأن المصائب والمكاره تلم، وأن ذلك كله يحل، وأن الله - عز وجل - في هذه الساعات العصيبة قد تحولت رحمته عن هؤلاء ونقصت بعض الشيء عن هذا المخلوق؟!

كلا. كل ذلك لم يكن، والرحمة الإلهية هيَ هيَ، لا تتحول ولا تنفصل، لكن الله - تعالى - يعامل كلًّا بما يناسب، ويسوق له من العلاجات ما يلزم، وحسبك أن تنظر إلى معاملة الأم والأب لطفلهما حينما يمرض،

(1) المرجع السابق ص 133 - 134

إنهما يشددان عليه في تطبيق ما يلزمه من حمية وعلاج، وما يشددان عليه هذا التشديد، إلا لفرط رحمتهما به وشديد حنانهما عليه.. يشددان عليه؛ ليدفعا عنه ما ألمَّ به من مرض، وينقلاه من حالِ التعاسة والشقاء إلى السعادة والهناء، وحسبك أن تنظر في هذا، وهو - سبحانه وتعالى - من رحمته وضع الرحمة والحنان بقلبهما عليك لا على سواك من أطفال الغير، لتدرك طرفًا من رحمة الله - تعالى - بك، حينما يسوق ما يسوق من شدائد وآلام. إنه يسوق لك ذلك دواءً لنفسك وعلاجًا لما بها من علل وأدران، وما ذلك كله إلا أثر من آثار رحمته - تعالى - بك وحنانه عليك. فغيِّر ما بنفسك من سوء واستقم يغيّر اللهُ عليك)[1].

حكمة الابتلاء بالذنوب والمعاصي:

قد يتساءل كثيرون عن حكمة وقوع المعاصي وما يترتب عليها من الابتلاءات والعقوبات، وربما خطر في بالهم السؤال الآتي: ألم يكن المولى - عز وجل - بقادر على أن يمنع هذه المعاصي؛ فلا تقع أصلًا!؟

وعن هذا التساؤل، أجاب الإمام ابن القيم باستفاضة، وفصّل أنواع الحكمة الإلهية التي اقتضت وقوع الذنوب أو المعاصي، نذكر منها:

1 - تعريف العبد فضل الله وإحسانه.. فهو - سبحانه - يحب أن يتفضل على عباده، ويتم عليهم نعمه، ويريهم مواقع بره، ومن أعظم أنواع الإحسان والبر أن يحسن إلى من أساء، ويعفو

(1) أسرار السبع المثاني ص61 - محمد أمين شيخو

عمـن ظلـم، ويغفـر لمـن أذنـب، ويتـوب علـى مـن تـاب إليـه، ويقبـل عـذر مـن اعتـذر إليـه.

2 - تعريـف العبـد عزة الله - سـبحانه - في قضائه، ونفوذ مشـيئته، وجريان حكمتـه، وأنـه لا محيـص للعبـد عمـا قضـاه عليـه، ولا مفـر لـه منـه، بل هـو في قبضـة مالكه وسـيده.

3 - تعريـف العبـد حاجتـه إلـى حفظ مـولاه لـه، ومعونتـه، وصيانته، وأنـه كالوليد الطفـل فـي حاجتـه إلـى مـن يحفظـه، ويصونـه، فـإن لـم يحفظـه مـولاه الحق ويصونـه ويعينـه فهـو هالـك، وأن مـولاه إذا وكلـه إلـى نفسـه وكلـه إلـى عجـز وخطيئـة وتقصيـر، فهلاكـه أدنـى إليـه مـن شـراك نعله.

4 - اسـتجلابه من العبد ما هو من أعظم أسـباب السـعادة له من اسـتعاذته واسـتعانته به من شـر نفسـه وكيـد عدوه، ومـن أنواع الدعـاء، والتضرع، والابتهـال، والإنابـة، والفاقـة، والمحبـة، والرجـاء، والخـوف، وأنـواع مـن كمـالات العبـد فيحصـل للـروح بذلـك قرب خـاص لم يكـن يحصل بدون هذه الأسـباب.

5 - تعريـف عبـده سـعة حلمـه وكرمه في سـتره عليـه، وأنه لو شـاء لعاجله علـى الذنـب ولهتكـه بيـن عباده فلـم يطب له معهـم عيش أبـدًا، ولكن جّللـه بسـتره وغشـاه بحلمـه، وقيـض لـه مـن يحفظـه، وهـو فـي حالته تلـك، بـل كان شـاهدًا وهـو يبـارزه بالمعاصـي والآثـام، وهـو مـع ذلـك يحرسـه بعينـه التـي لا تنام.

6 - إقامة حجة عدله على عبده ليعلم العبد أن لله عليه الحجة البالغة، فإذا أصابه ما أصابه من المكروه، فلا يقال من أين هذا، ولا من أين أتيت ولا بأي ذنب أصبت، فما أصاب العبد من مصيبة قط دقيقة ولا جليلة إلا بما كسبت يداه، وما نزل بلاء قط إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة، ولهذا وضع الله المصائب والبلايا والمحن رحمة بين عباده يكفر بها من خطاياهم، فهي من أعظم نعمه عليهم وإن كرهتها أنفسهم، ولا يدري العبد أي النعمتين عليه أعظم نعمته عليه فيما يكره أو نعمته عليه فيما يحب.

7 - أن يخلع صولة الطاعة من قلبه وينزع عنه رداء الكبر والعظمة، الذي ليس له ويلبس رداء الذل والانكسار والفقر والفاقة فلو دامت تلك الصولة والعزة في قلبه؛ لخيف عليه ما هو من أعظم الآفات.

8 - أن التوبة توجب للتائب آثارًا عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدونها، فتوجب له من المحبة والرقة واللطف وشكر الله وحمده والرضا عنه؛ عبوديات أخرى، فإنه إذا تاب إلى الله تقبل الله توبته، فرتب له على ذلك القبول أنواعًا من النعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها، بل يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضها ويفسدها.

9 - إن الذنب يوجب لصاحبه التقيظ والتحرز من مصائد عدوه ومكامنه، ومن أين يدخل عليه اللصوص والقطاع ومكامنهم، ومن أين يخرجون عليه، وفي أي وقت يخرجون، فهو قد استعد لهم وتأهب، وعرف بماذا يستدفع شرهم وكيدهم [1]

من ثمرات الابتلاء:

كلما أصابني الهم والكآبة، وضيق الصدر، ووحشة النفس، أعود إلى قلبي أفتش عما بداخله؛ لعلي أكتشف معصية منسية، أو شهوة مستحكمة أو غفلة مزمنة، فأستشعر رغبتي في الفرار إلى الله - عز وجل - وإرادة الصلح معه!

(1) نقلًا من مفتاح دار السعادة (298 - 308)، وتقريب طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص 280 - 285) بتصرف. فارجع إلى هذين الكتابين النفيسين؛ فقد ذكر ابن القيم من الحكم أضعاف ما نقلت.



إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

(إن الْإِنْسَـان لَا يَأْتِيـهِ الْفـرج وَلَا تُدْرِكـهُ النجَـاة، إِلَّا بعـد إخفـاق أملـه فِـي كل مَـا كَانَ يتَوَجَّـه نَحـوه بأملـه ورغبتـه، وَعنـد انغـلاق مطالبه، وَعجـز حيلته، وتناهي ضـره ومحنته، ليَكُـون ذَلِـك باعثًـا لَـهُ على صرف رجائـه أبدًا إِلَـى الله - عز وَجـل -، وزاجـرًا لَـهُ علـى تجَـاوز حسـن ظَنّه بِـهِ) [1].

(1) الفرج بعد الشدة للتنوخي ج1 /163

افتح نافذة الأمل:

من أكثر الأوقات التي ينشط فيها الشيطان - عن تجربة - أوقات الشدة والعسر، ولحظات الضيق والكرب، فيهمس لضعاف الإيمان بأن هذه المحنة ستطول، وأن الألم سيستمر، وأن المعاناة لن تنتهي، فتحبس نفسك في زنزانة ضيقة تمنع عنك نسمات الأمل والرجاء، وتعشش في صدرك عناكب الهم والقلق والإحباط، وتتجرع مرارة الآلام والأحزان ناسيًا أن قدر الله دائمًا يعمل، ودائمًا يُغير، ودائمًا يُبدل، ودائمًا يُنشئ ما لا يجول في حسبان البشر من الأحوال والأوضاع. فرج بعد ضيق، وعسر بعد يسر، وبسط بعد قبض ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا {94/5} إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[1] (الشرح 5 - 6).

---

(1) يقول المفسّرون والبلاغيّون: إن المعرفة إذا كررت كانت هي هي، وأن النكرة إذا كررت كان اللفظ الثاني غير الأول. وهنا يقولون: إن كلمة «العسر» وهي معرفة هي عسر واحد بعينه فى الموضعين، وأما كلمة «يسر» وهي نكرة؛ فإنها يسر بعينه في كل موضع، ومن هنا قالوا «لن يغلب عسرٌ يسرين» يعنون بذلك أن العسر دائمًا يواجهه يسران، وأنهما لا بد أن يقهراه ويغلباه. هذا وجه يراه العلماء في هذا التكرار. ووجه آخر، نراه نحن واللّه أعلم - وهو هذه المعيّة «مع»، التي تحمل مع كل عسر يسرًا مصاحبًا له، مندسًّا فى كيانه. «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» أي إن العسر - أيّ عسر - لا يلقى الإنسان إلا ومن محامله اليسر، الذي يعمل على مقاومته، ومصارعته حتى يقهره آخر الأمر، ويتركه صريعًا؛ ليأخذ اليسر مكانه، متمكنًا، لا ينازعه عسر! هكذا الشدائد تتولّد منها دائمًا مواليد الخير، وتستنبت في أرضها أطيب الثمرات، وأكرمها، وأهنؤها) (التفسير القرآني للقرآن ج16 /1611

مـع الحـزن سـرور، ومـع المـرض عافيـة، ومـع الفقـر غنـى، الشـدة يتلوهـا رخـاء، ولـكل حادثـة عزاء، البـاب الموصـد لـه مفتـاح، والقلعـة المنيعـة لهـا باب، ولـكل قميـص مـن الشـدة جيـب مـن اللطف، ولـكل غرفة ضيقـة من الكـرب كوة مـن الفـرج، إذا اشـتد الحبـل انقطـع، وإذا ضـاق الأمـر اتسـع، وإذا وقـع المكـروه ارتفع.

وهكـذا عندمـا تسـتقر هـذه الحقيقـة في نفـوس البشـر، يظـل تطلعهم إلى مـا يحدثـه اللـه مـن الأمر متجـددًا ودائمًـا، وتظل أبـواب الأمل في تغييـر الأوضاع مفتوحـة دائمـة، وتظـل نفوسـهم متحركـة بالأمـل، ندية بالرجـاء، لا تغلـق المنافذ ولا تعيـش فـي سـجن الحاضر.

فالمؤمـن إذا مسـه سـوء، وأصابه ضرّ، وعصفـت به المصائـب، وزلزلته النكبات، وأقضـت مضجعـه الحـوادث، ودهمتـه الخطـوب؛ لم يقتلـه الجزع، ولـم يخنقه اليأس والقنـوط؛ لأنـه يعلـم بإيمانـه باللّـه - عـز وجـل - أن تلـك الحـال لـن تـدوم، وأن بعد الضيـق فرجًـا وسـعة، وأن مـع العسـر يسـرًا، بل أكثر من يسـر!

(اليسـر الأول: يسـر الصبـر والرضـا والشـكر؛ لأنه إذا كان الإنسـان في مصيبة كمـرض، ثـم رزقه الله سـرور القلـب، والطمأنينة، والرضا، حتى صار لا يبالي شُـفي أم لـم يشـف، لِمَـا عنـده مـن الإيمان؛ كان هـذا يسـرًا عظيمًا. وبذا تحصل سـعادة القلـب، وسـرور النفـس، فهذا اليسـر المصاحب للرضا والصبر والشـكر.

اليسـر الثانـي: هـو يسـر الفـرج وزوال الغـم، أي: زوال الشـيء الـذي يعانـي منه الإنسـان مرضًا كان أو فقرًا، أو سجنًا، أو همًّا، أو غمًّا. وهذا غير الأول؛ فالأول أن يسـلم ويرضـى بقضـاء اللـه، والثانـي أن يهيـأ لـه انكشـاف هذا الأمـر من حيث لا يحتسب.

اليسـر الثالـث: يسـر يعملـه الإنسـان ويحاولـه، وهـو يسـر التسـبب والحيلة؛ لأنـه مطلـوب مـن الإنسـان أن يبـذل الأسـباب، بـأن يتعالـج، أو يطلـب العلـم، أو يبـذل المال، يحـرص على إزالة الأسـباب الموجبة للهـم والغم، وتحصيل الأسـباب الموجبـة للسـعادة.

اليسـر الرابـع: يسـر العطـاء والمنحـة والفضـل مـن اللـه - سـبحانه وتعالى - مـن غيـر سـبب، والله - تعالى - يقـول:﴿ هَـذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِـكْ بِغَيْرِ حِسَـابٍ ﴾ (ص39)، فقـد يعطـي اللـه - تعالـى - العبـد من غير تسـبب.

اليسـران الخامـس والسـادس: يسـر الدنيـا ويسـر الآخرة، وهو مـا يعطي الله - تعالـى - العبـد فـي الدنيـا من الخيـر والبر والفضـل، فإنه فاته ذلك ظفر باليسـر الأخـروي، ولذلـك إذا تخيـل مـا عنـد الله - تعالـى - مـن النعيم والفضـل والعطاء، سُـر بذلك، واطمأنت نفسـه وقـرت عينه.

اليسـران السـابع والثامـن: يسـر الحـال والمآل: فيسـر الحـال هو ما يعيشـه المرء الآن، والمصيبـة قـد تكـون سـببًا فـي ألـوان مـن الفيـض والفضـل والعطـاء، وأمـا يسـر المـآل، فهـو الانتظـار والترقـب، وانتظـار القـادم، وتوقع الأفضـل)[1].

(1) إشراقات قرآنية ج2 / 78 - 79 – د.سلمان العودة

إنَّـه إذا لاح عـسْر فارجُ يُـسَّرا فإنَّه	لـهُ فَـرجٌ مِـمَّا أَلـحَّ بـه الدَّهـرُ
لَـهُ كُلَّ يَـومٍ في خَليقتِـهِ أَمْـر	قَضَى الله أنَّ العُسرَ يَتبَعُهُ اليُسرُ

قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا:

إنـه مما يهـون علـى العبـد حـدة الشـدائد وقسـوة المصائـب أن لهـا زمنًّـا لا يتجـاوزه، ووقتًـا لا يتخطـاه.. (فاللـه جعـل لـكل شـيء قـدرًا، فـإذا جـاء موعـد المقـدور فـلا يسـتأخر عـن وقتـه ولا يسـتقدم.

للكربـة وقـت ثـم تـزول، ولها زمـن ثم تحـول؛ لأن الله– عز وجـل - قد جعل لكل شـيء قدرًا.

للمـرض أيـام معـدودة، وليـال محسـوبة، ثم ينكشـف، لأن الله - عـز وجل - جعل لكل شـيء قـدرًا.

للهـمِّ سـاعات، وللغـم أوقـات، ثم ينجلي بسـرور لاحـق، وفجر صـادق؛ لأن الله - عـز وجـل - جعـل لكل شـيء قـدرًا. إن الإيمـان بأعمـار المصائب سـلوة للمنكوبين، وإن التصديـق بآجـال المحن عـزاء للمصابين.

إن للمكـروه زمنًـا لا يتجاوزه، فتخيلـك في إزالته قبل حينه ضرب من الهوس، وفـن مـن فنـون الوسوسـة؛ لأن مهمتك كيف يزول، لا متى يـزول؟ فمن حرص على كيفيـة زوالـه دعا وأخلـص، وجد واجتهد، واتقى وصبر، وتـوكل وأناب، وفوض الأمر إلـى الملـك الوهاب. ومـن تعلق قلبه بزمن الزوال، ومتى يرتحل المكروه؛ اسـتبعد الفـرج، واسـتبطأ الـروح، وصاحب الإحباط، ورافقه الفشـل وسـامره اليأس، وحادثه

القنـوط، فـلا يـزال فـي أودية الاضطـراب وطرق السـخط والندم والحسـرة واللوم، وتمزيـق القلـب بسـياط القلـق، فقلبـه فـزع، وذهنـه شـارد، وحاله كاسـف، وباله مشـتت، وباطنـه ناقـم، ثائر معترض شـاك) (1)

وما أجمل ما قاله الرافعي - رحمه الله -:

(مـا أشـبه النكبـة (المصيبـة) بالبيضـة تحسـب سـجنًا لما فيها وهـي تحوطه وتربيـه وتعينـه علـى تمامـه، وليـس عليـه إلا الصبـر إلى مـدة، والرضى إلـى غاية، ثـم تنقـف (تفقـس) البيضـة فيخـرج خلقًا آخـر، وما المؤمـن في دنيـاه إلا كالفرخ فـي بيضتـه، عملـه أن يتكـون فيهـا، وتمامـه أن ينبثق شـخصه الكامـل فيخرج إلى عالمـه الكامل) (2)

وأين حسن الظن بالله– عز وجل -!

فـي أشـد لحظـات المعانـاة والانكسـار، يحتاج المؤمـن إلى جرعـات مكثفة مـن حسـن الظـن باللـه - عـز وجـل - والثقـة فـي تدبيـره حتـى يتمكـن مـن قهـر اليـأس، ودفـع الوسـاوس، ومراغمة الإحباط والفشـل، وغـرس نبتة الأمـل والتفاؤل، ليتحـرك بعزيمـة قويـة وهمـة عاليـة وإرادة فولاذيـة لا تقـف أمامهـا الحواجـز والسـدود ولا تعوقهـا السلاسـل والقيـود حتـى يأتـي الفـرج واليسـر الموعـود.

وهـل تتجلـى إشـراقات الأمـل وأنـوار التفـاؤل إلا وسـط أدخنـة الشـدائد وظلمـات المحـن!

---

(1) حدائق ذات بهجة ص 137 - 138 بتصرف - د. عائض القرني

(2) بدائع الحكم من وحي القلم ص 94 - حسن السماحي سويدان

وما الذي يفرق بين الإيمان الحقيقي والإيمان المزيف؛ إلا حسن الظن بالله في اللحظات الحالكة والأوقات العصيبة؟!

وحسن الظن بالله هو ظنّ ما يليق بالله - تعالى -، واعتقاد ما يحق بجلاله، وما تقتضيه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا مما يؤثر في حياة المؤمن على الوجه الذي يرضي الله - تعالى -، وهو يثمر اعتماد المؤمن على ربِّه في أموره كلها، واطمئنانه بما عند الله - تعالى -، وعدم الاتكال على تدبير النفس.

(أخي، هَبْ أن أسبابك انقطعت، ولم يبق لديك منها شيء، وبذلت قصارى جهدك في تحصيل مطلوبك، ثم لم تبلغ مرادك.. فهل تعلم أن لك ربًّا قديرًا يخرق الأسباب، ويجبر كسر المؤمنين، ويسد خلل المتوكلين، فكيف يتسرَّب بعدها اليأس إلى قلبك؟!، وكيف تذهب نفسك على جهدك حسرات؟!

ومنبع اليأس من رحمة الله أن العبد يجعل قوة الله العليا مساوية لقوة الخلق، فإذا ضاقت به الدنيا وتكاثرت عليه الخطوب أصابه اليأس؛ لأن قلبه لم يؤمن حق الإيمان بالقدرة الإلهية، وغفل عن قوة الله - تعالى - وبطشه وسلطانه، فوقع فريسة لهذه الأوهام، ولذا جاء في الأثر: (لا كَرْبَ وأنت رَبٌّ). وما عزَّ عليك بقانون الأرض، فاطلبه بقانون السماء، وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب، وتوكَّل على الله - تعالى - ؛ فليثق أن الله يمِدُّه بما هو فوق الأسباب) [1].

(1) ينابيع الرجاء ج1 /143 - د. خالد أبو شادي

انظـر إلـى (أصحـاب الكهـف) لما لجـأوا إلى ربهـم واعتصموا بحبلـه، غمرت رحمتـه - سـبحانه - الكهـف الموحـش المظلـم، فتبـدل الخـوف بالأمن، والوحشـة إلـى أنـس، وتحول الضيق والعسـر إلى أمل ويسـر. وهكـذا دائمًا نسـمات الرحمة الإلهيـة تهـب علـى القلـوب الواثقـة فـي فـرج اللـه ويسـره، المستبشـرة بجـوده وكرمـه؛ لتمنحهـا الأنـس والسـكينة فـي أحلك الأوقـات وأصعـب اللحظات.

عـن أبـي هريـرة - رضـي اللـه عنـه - أنّ رسـول الله - صلّـى الله عليه وسـلّم - قـال: (إنّ حسـن الظـّنّ باللـه - تعالـى - من حسـن العبـادة) [1].

وعـن عبـد اللـه بـن مسـعود - رضـي الله عنـه - قال: (والّـذي لا إلـه غيره ما أعطـي عبـد مؤمـن شـيئًا خيـرًا مـن حسـن الظـّنّ بالله - عـزّ وجـلّ - والّـذي لا إله غيـره، لا يحسـن عبـد باللـه عـزّ وجلّ الظـّنّ إلّا أعطاه اللـه - عزّ وجـلّ - ظنّه، ذلك بـأنّ الخير في يـده)[2]

ويحك يا صاح..

لـم يعـودك إلا الإحسـان، ولـم تجـده دائمًـا إلا الكريـم المنـان، ثـم تستسـلم فـي أوقـات المحـن لوسـاوس الشـيطان يغريـك بالسـخط والجـزع، ويلقـي بـك فـي نهـر الأحـزان (إن لـم تُحْسِـن ظنـك بـه لأجـل جميـل وصفـه،

(1) رواه (أبو داود (4993)، والترمذي (3679)

(2) (رسائل ابن أبي الدنيا في الزهد والرقائق والورع) ج1 /122

حَسِّـن ظنّـك بـه لوجـود معاملتـه معـك، فهـل عـوّدك إلّا حَسَـنًا، وهـل أسـدى إليـك إلّا مِنَنًـا) [1]

يعقوب عليه السلام وحسن الظن بالله - تعالى -:

إن المتدبـر فـي قصـة يعقـوب - عليـه السـلام - ليـرى أن الأمـل بالله وحسـن الظـن بـه كانـا السـلوى لـه والبلسـم فـي كل أحـداث قصتـه مـع أبنائـه، فلمـا فقـد يوسـف وزعـم إخوتـه بأنـه قـد أكلـه الذئـب، لـم يـزد علـى أن يقـول فـي يقيـن وتسـليم: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّـهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (يوسف: 18)، ثـم انتظـر الشـيخ الكبيـر أن يـؤوب ابنـه الغائب، وطـال الانتظـار دون جدوى. ومرت السـنون علـى الشـيخ الآمـل فـي الغيـب، وإذا هـو بـدل أن يعـود ابنـه المرتقـب يفقـد ابنه الآخـر، وينـكأ الجـرحَ القديـم جرحٌ جديـد!. ماذا يصنـع؟، أينفس عن جـوّاه بالصراخ والجـزع؟ لا، إنـه يقـول مـرة أخـرى: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّـهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (يوسف:83). إن الأمـل باللـه - تعالى - في نفـس الأب الكريم يتناسـب طرديًّـا مـع انتفـاش المصيبـة، فكلمـا كبـرت كبـر أملـه بربـه وزاد توكلـه عليـه، لقـد تحمـل المأسـاة الأخيـرة بالعاطفـة نفسـها التي تحمـل بها الأولـى، وظل

---

(1) ما بين القوسين من حكم ابن عطاء - رحمه الله - . والمعنى: إن لم تقدر أن تحسن ظنك بالله - تعالى - لشهود وصفه بالرأفة والرحمة التي لا تتخلف، فحسن ظنك به لوجود معاملته معك بلطفه ومننه، فإنه ما عودك إلا عطاءً حسنًا، ولا أسدى أي أوصل إليك إلا مننًا كبيرة ونعمًا غزيرة.

علـى تشـبثه برحمـة اللـه - تعالـى -، يرمـق الغـد، وفـي فؤاده شـعاع مـن رجاء لم تطفئـه الأحـداث، وقـال لأبنائـه: ﴿يَـا بَنِـيَّ اذْهَبُـواْ فَتَحَسَّسُـواْ مِـن يُوسُـفَ وَأَخِيـهِ وَلاَ تَيْأَسُـواْ مِـن رَّوْحِ اللـهِ إِنَّـهُ لاَ يَيْـأَسُ مِـن رَّوْحِ اللـهِ إِلاَّ الْقَـوْمُ الْكَافِـرُونَ ﴾ (يوسف: 87)

(وَلاَ تَيْأَسُـواْ مِـن رَّوْحِ اللـهِ).. شـعار المؤمـن إذا اشـتدت الأزمـات وعصفـت النوائـب، يشـحذ هممهـم ويجعلهـم يواجهـون صعوبـات الحيـاة باتـزان ورباطـة جـأش.

(وَلاَ تَيْأَسُـواْ مِـن رَّوْحِ اللـهِ).. تفـاؤل يدفـع المـرء لتجـاوز المحـن، ويحفـزه للعمـل، ويورثـه طمأنينـة النفـس وراحة القلـب، فتهفو نفسـه للتطلع للفرج الـذي يعقـب كل ضيـق، ولليسـر الـذي يتبع كل عسـر.

(وَلاَ تَيْأَسُـواْ مِـن رَّوْحِ اللـهِ).. وكيـف ييـأس العبـد الـذي يعـرف قدرة اللـه– تعالى - المطلقـة وتصرفـه التام فـي الكون، وعظيم رحمتـه بخلقه، ومعيتـه للمؤمنين، فهو لا يتوقـع منـه إلا كل خيـر، بـل يـرى العافية في ثنايـا البلاء؟!

ولـرب نازلـةٍ يضيـق بهـا الفتى	ذرعًـا وعنـد اللـه منهـا المخـرجُ
ضاقتْ فلـما اسـتحكمتْ حلقاتها	فُرجـت وكان يظنهـا لا تُفـرجُ
يـا صاحب الهم إن الهم منفرج	أبـشر بخـير فـإن الفـارج اللـه
اليـأس يقطـع أحيانًـا بصاحبـه	لا تيأسـّن فـإن الـكافي اللـه
اللـه يحدث بعـد العسر ميسرة	لاتجزعـن فـإن الكاشـف اللـه
إذا بُليـت فثـق باللـه وارض بـه	إن الـذي يكشـف البلـوى هـو الله

من ثمرات الابتلاء:

كلما فارق الأمل قلبي ذكرته بلحظات مريرة مضت، جثم فيها اليأس على صدري وتكاثفت سحب همي وغمي، حتى إذا طال الأمد وأوشك القلب على الانهيار، غمرته نسمات الرحمة الربانية، فانقلبت المحنة إلى منحة، والعسر إلى يسر، والضيق إلى فرج، والحزن إلى سعادة.. فيا ليتني أتذكر هذه اللحظات عند اشتداد الكربات وتفاقم الأزمات.



وعرفت الله الصمد

(الصمد اسم يحمل التقديس والتعظيم، والتنزيه والتكريم، فالعظمة فيه لله - تعالى - والاستغناء عن كل الأموات والأحياء، بل منه تطلب الأشياء، فإليه الدعاء، ومنه الرجاء، وله الثناء..

ففي الصمد رسائل المجد الكامل، والغنى الشامل، والكرم الهاطل، واللطف الحاصل الواصل، والبرّ النازل.. وفي الصمد خمس وسائل: الدعاء، والرجاء، وصدق الالتجاء، ولطيف الاستجداء (طلب المعونة)، وكمال غنى الخالق ونقص العباد الفقراء)

(د. عائض القرني)

معرفة الله مفتاح الأمان:

إن طبيعـة الحيـاة الدنيـا أنهـا لا تخلـو مـن الأزمـات والنكبـات والكربـات، يتعـرض فيها الإنسـان للإخفاق والفشـل، ويكابد مـرارة الآلام والحرمان، ويتقلب بيـن الهمـوم والأحـزان. ولابـد أن يمتلـك - المـرء لمواجهـة كل ذلـك - معرفـة راسـخة باللـه - عـز وجـل - تمـده بالقـوة والعـون، وتمنحـه الأمـن عند اشـتداد المخـاوف، والأمـل عـن تكاثـف سـحب اليـأس، وتفتـح لـه الأبـواب المغلقـة، وتيسـر لك السـبل المتعسـرة.

فليـس هنـاك أفضـل لأوجاع القلـب وهموم النفـس من دواء إلا تدبر أسـماء اللـه الحسـنى وصفاتـه العلـى، فهـي تسـكب فـي القلـب اليقيـن والطمأنينـة بأن لهـذا الكـون ملـكًا قـادرًا حكيمًـا لطيفًـا رحيمًـا يتولـى شـئونه ويدبر أمـوره، يرعى أوليـاءه ويحفـظ عباده.

فمتـى اغتـرف القلب من هـذا المعين، انسـابت في القلب نسـمات المحبة تنبهـه إذا غفـل، وتحفـزه إذا وهـن، وتثبتـه إذا تألـم، وتفتـح لـه بابًـا إلـى الرضـا والسـكون، ممـا يحمـي قلبه مـن الجزع والانهيار فـي أوقات الشـدائد وعند حلول الصدمـات، ويجعلـه قـادرًا علـى قهـر اليـأس ومراغمـة الإحباط. قـال رسـول الله - عليـه الصلاة والسـلام -: (تعـرف علـى اللـه فـي الرخـاء يعرفك في الشـدة) [1]

---

(1) رواه أحمد في المسند (2800)

لقد منّ الله– تعالى - عليّ في فترة محنتي ومعاناتي بدراسة أسماء الله الحسنى وتدبرها [1]، فكان من ضمن الأسماء التي كان لها بالغ الأثر وعظيم النفع اسم الله الصمد. ولقد زاد عجبي عندما وجدت هذا الاسم قد ذكر في سورة واحدة فقط. سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾، سورة نحفظها عن ظهر قلب، ونرددها كثيرًا في صلواتنا، دون أن ننتبه إلى معنى هذا الاسم العظيم أو نغترف من نفحاته وأنواره.

من أسرار وإشراقات اسم (الصمد):

الصمد: المقصود في الرغائب والحوائج، المستغاث به عند النوازل والمصائب، فهو الملجأ عند الشدائد والحاجات، والمفزع عند النكبات والكربات.. تصمد إليه الكائنات، تسأله الحاجات، بشتى اللغات، وكافة النغمات، فلا تنتهي خزائن أفضاله، ولا تنفد كنوز نواله[2]

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -:(الصمد من تصمد نحوه القلوب بالرغبة والرهبة وذلك لكثرة خصال الخير فيه، وكثرة الأوصاف

---

(1) كان من أوائل الكتب التي قرأتها آنذاك (موسوعة أسماء الله الحسنى– د. محمد راتب النابلسي) وهي موسوعة قيمة في ثلاثة مجلدات ضخمة، ثم تتابعت الكتب بعد ذلك، فكنت أحرص على شراء كل ما أعتقد أنه جيدًا ونافعًا في أسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

(2) قال في اللسان: «صمده يصمده وصمد إليه كلاهما: قصده، وصمد صمد الأمر: قصد قصده واعتمده، وأصمد إليه الأمر: أسنده.. والصَّمَدُ بالتحريك: السيد المطاع الذي لا يقضى الأمر دونه، وقيل: الذي يصمد إليه في الحوائج أي يقصد» (لسان العرب 2495/4)

الحميـدة لـه، ولهـذا قـال جمهـور السـلف منهـم عبـد اللـه بـن عبـاس - رضـي اللـه عنهمـا -: «الصمـد: السـيد الـذي كمـل سـؤدده، الحكيـم الـذي كمـل حكمـه، الرحيـم الـذي كملـت رحمتـه، الجـواد الـذي كمـل جـوده) [1]

وقـال الشـيخ السـعدي - رحمـه اللـه تعالـى -: (الصمـد): أي الـرب الكامـل والسـيد، العظيـم، الـذي لـم يبـق صفـة كمـال إلا اتصـف بهـا، ووصـف بغايتهـا، وكمالهـا بحيـث لا تحيـط الخلائـق ببعـض تلـك الصفـات بقلوبهـم، ولا تعبـر عنهـا ألسـنتهم، وهـو المصمـود إليـه المقصـود فـي جميـع الحوائـج والنوائـب ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: 29)، فهـو الغنـي بذاتـه، وجميـع الكائنـات فقيـرة إليـه بذاتهم: فـي إيجادهم، وإعدادهـم، وإمدادهم بـكل مـا هـم محتاجـون إليـه مـن جميع الوجـوه، ليـس لأحد منهـا غنى مثقـال ذرة، فـي كل حالـة من أحوالهـا) [2]

جـاء ذكـر (الصمـد) فـي سـورة من أعظـم سـور المصحف، ومـن أقصرهـا، وهي سـورة الإخـلاص التـي تعـدل ثلـث القـرآن الكريم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {112/1} اللَّهُ الصَّمَدُ﴾. وكأن الصمـود لـه - سـبحانه - أهم تجليّات الإخلاص فـي العبادة، فمن أكثر مـن اسـتحضار معنـى الإخـلاص فـي عباداتـه؛ أكسـب قلبـه صفـة الرضـوخ إلـى مولاه، والصمـود لـه وعـدم الالتجـاء إلّا إليه.

كمـا ورد فــي أكثــر مــن حديــث مــن أحاديــث النبــي - عليــه الصــلاة والســلام -، منهــا حديــث (الاســم الأعظــم)، فعــن بريــدة بــن الحصيــب -

---

(1) الصواعق المرسلة 1027/3.

(2) بهجة قلوب الأبرار ص 165.

رضـي اللـه عنـه - قـال: سـمع النبـي - ﷺ - رجـلًا يدعـو، وهـو يقول:(اللهـم إنـي أسـألك بأنـي أشـهد أنـك أنـت اللـه لا إلـه إلا أنـت الأحـد الصمـد، الـذي لـم يلـد ولـم يولـد، ولـم يكـن لـه كُفُـوًا أحـد). فقـال رسـول اللـه– ﷺ -: «والـذي نفسـي بيـده لقـد سـأل اللـه باسـمه الأعظـم، الـذي إذا دُعـي بـه أجـاب، وإذا سُـئل بـه أعطـى» [1]

(أعجبتنـي مقولـة نقلهـا أبـو حامـد الغزالـي عـن أحـد العارفيـن، يقـول فيها عـن اسـم اللـه الأعظم:

«فـرّغ قلبـك مـن غيـره، ثـم ادعـه بـأي اسـم يجبـك».. وهـذا فحـوى معنـى الصمـد، اجعـل فـي قلبـك اللـه، ثـم قـل أي شـيء مـن مرضاتـه سيكون إلهـيّ المسـحة، وربّانـيّ الصبغـة.. كل عـارض يعـرض إنّمـا هـو رسـالة تقـول لـك: لديـك ربٌّ فالتجـئ إليـه.

المرض رسالة لتذلّ له..

والفقر برقيّة لتسجد له..

والضعف مكالمة تقول لك استجلب القوّة من القويّ..

الحياة كلّها تصرخ في وجهك: لديك ربٌّ.. اصمد إليه.

يجـب أن تعلـم أنّـه لـو لـم يـأذن للـدواء أن يـؤدّي مفعوله في جسـدك، لما ارتفـع عنـك ذلـك المرض، فاصمـد إليه أن يشـفيك.

يجـب أن توقـن أنّـه لـو لم يصـرف تلك السـيارة المتهـوّرة عنـك، لكنت الآن فـي عـداد الموتى، فاصمـد إليـه أن يحفظك.

(1) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه

يجب أن تتأكد أنّه لو لم يحطك برعايته عندما ركبت البحر.. لكنت الآن طعمًا لأسماك المحيط، فاصمد إليه أن يكون معك.. ولهذا تصمد إليه لترتاح.. ليهدأ لُهاثك.. لتلين مفاصلك.. لأنّك بدونه تركض وتلهث وتتوتّر) [1]

فوا حسرتاه.. كم مرة قرأنا سورة الإخلاص، وعشنا حينًا من الدهر لم نعرف معنى الصمد؟

كم مرة ذللنا أنفسنا لفلان أو علان، من أجل غرض أو مطمع أو وظيفة، وكل ذلك لأن القلب لم يتشبع بمعاني الصمد؟

أين أثر اسم الله الصمد في أعماق قلوبنا؟

أين نحن من التطبيق العملي الفعلي لاسم الله الصمد؟

أليست لك حاجات دينية ودنيوية تتمنى تحقيقها؟

هلا رفعتها للصمد!.. هلا تعلقت بالصمد!

أما علمت أن ابتلاءاتك وأزماتك التي تتعرض لها في حياتك هي رسائل من الله لتتعبد باسمه الصمد وترجع إليه؟

أما تستحي أيها الغافل!.. ربك يقول لك: أنا المقصود في إدراك المطالب، وحصول الرغائب، واندفاع النقم، وتتابع النعم.. فكيف تتوجه بالسؤال إلى غيره، وكيف تنتظر الفضل والعطاء من سواه؟!

(1) لأنك الله– رحلة إلى السماء السبعة ص20، ص23 - علي الفيفي

أتينـاك بالفقـر يـا ذا الغنـى	وأنـت الـذي لم تـزل محسـنا
وعودتنـا كل فضـل عـسى	يـدوم الـذي منـك عودتنـا
فـما في الغنـى أحـد مثلكـم	وفي الفقـر لا عصبـة مثلنـا
وأنـت هـو الصمـد المرتجـى	فيـا ليـت شـعري أنـا مـن أنـا
إذ كنـت في كل حـال معـي	فعـما سـواك أنـا في غنـى

عزٌّ لا يفنى:

إن تدبـر اسـم (الصمـد) يغـرس في القلـب العزة باللـه والاكتفاء به عما سـواه، والاسـتغناء عمـا فـي أيـدي الناس.. فـإذا كان أكثر النـاس يلجأون في دنياهم لوسـائل يتوهمـون فيهـا العـزة والكرامـة، والوقاية من الـذل والمهانة كالمال والجاه والرئاسـة والاحتمـاء بأصحـاب المكانـة والنفـوذ، وكالتمتـع بالمنعـة والقـوة الماديـة. فـإن المؤمـن الـذي أشـرقت أنـوار الصمد فـي قلبه يتوجـه إلى من بيـده العـزة الحقيقية والحمايـة الكاملة.

إن (كل الأغيــار مــن دون اللــه - عــز وجــل -، لا شــأن لهــم ولا قيمــة، بــل ليــس لهــم وجــود ذاتــي قــط. إذ هــو الموجــد لهــم ابتــداء واســتمرارًا، وهــو المتصــرف بهــم والباعــث لقدراتهــم وحركاتهــم، إذًا فالاعتمــاد علــى هــذه الأغيــار أيًّــا كانــت، حمــق وتــورط فــي مهلكــة. فالــذي يبتغــي الاعتــزاز بالمــال إذ يجمعــه وينميــه، إنمــا يعتمــد مــن ذلــك علــى مــا يشــبه الاعتمــاد علــى كثيــب رمــل متنقــل. والــذي ينســج لنفســه، ابتغــاء تحصيــن عزتــه، دائــرة مــن الرئاســة والمكانــة،

يحمي نفسه من ذلك فيما يشبه بيت العنكبوت. والذي يشحن جسمه بالقوة ويدعم قوته الجسمية بالسلاح والعتاد، موقنًا أنه قد ضمن لنفسه بذلك عزة راسخة لا تزول، أشبه بمن يجعل من الظل المتنقل حرزًا دائمًا له.

كل هذه الأعراض التي تبدو وسائل وأسبابًا، جنود بيد الله يصرّفها كما يشاء ويسخرها لما يريد. إن هي إلَّا أشباح لا حول لها ولا قوة، بل لا وجود لها إن انقطع عنها المدد الإله. فمن اعتصم بالله بجدّ وصدق، وجعل من عبوديته لله حرزًا دائمًا له، بقي محصنًا وسط هالة من العزة لا انقضاء لها ولا تحول له عنها. مهما تقلبت به الأحوال وأقبلت إليه أو تراجعت عنه الأسباب) [1]

أخي القارئ،

صدقني لقد ظللت أبحث طوال محنتي عن ملاذ يقيني من الآلام والمتاعب والمخاوف والهواجس، فلم أجد حصنًا آمنًا ولا ملاذًا نافعًا إلا باللجوء إلى الصمد - سبحانه -، وعندها وجدت الأمل بعد اليأس، والسعة بعد الضيق، والفرح بعد الحزن، والرشد بعد الحيرة والاضطراب، والعزة بعد الذل.

فماذا عنك أنت؟!

ألم يأن الأوان؟

(1) الحكم العطائية شرح وتحليل ج355/2 - 356،395

من ثمرات الابتلاء:

عندما تتسلل إلى نفسي مشاعر اليأس والإحباط، أهرع إلى سورة الإخلاص، أقف أمام اسم الله (الصمد) في خشوع وخضوع، فيرتجف قلبي وتستيقظ نفسي من غفلتها وشرودها، فأردد (الصمد.. الصمد)، فيغمرني اليقين، وتحل السكينة، ويعظم الأمل ويقوي الرجاء.



رسالة إلى مريض

(أيها المريض الذي يعاني من كثرة العلل والآفات.. اعلم أن الله - عز وجل - ما ابتلاك إلا لأنه يحبك، ويريد أن يرفع قدرك في عليّين، وتذكر حُسن الجزاء؛ ليخفّ حمل البلاء عليك. فإنّ الأجر على قدر المشقة، والراحة لا تنال إلا على جسور من التعب، وما أقدم أحد على تحمُّل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجّلة، والصبر على مرارة العاجل يفضي إلى حلاوة الأجل، و(إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء) (رواه الترمذي2396)

فـي أثنـاء إعـدادي لهـذا الكتـاب، اطلعـت علـى مـا كتبـه الأسـتاذ سـعيد النورسـي - رحمـه اللـه - فـي كتابـه (اللمعات) [1] تحت عنوان (خمسـة وعشـرون دواء)، وهـي رسـالة لـكل مـن أصابـه المـرض، وضعـف جسـمه، وشـحب لونـه، وقلـت حيلتـه، وضعفـت وسـيلته.

فأحببـت أن أختـم الكتـاب بنقـل ثمانيـة من هـذه الأدوية النافعـة (بتصرف واختصـار)؛ علها تكـون تسـلية حقيقيـة ومرهمًـا نافعًـا لأهـل البـلاء- وخاصـة المرضى.

الدواء الأول: المرض يحول دقائق العمر إلى ساعات من العبادة:

أيهـا المريـض النافـد الصبـر، تجمّـل بالصبـر، بل تجمّل بالشـكر، فـإن مرضك هـذا يمكنـه أن يجعـل مـن دقائق عمـرك في حكم سـاعات من العبـادة، ذلك لأن العبادة قسـمان:

الأولى: العبادة الإيجابية المتجسّدة في إقامة الصلاة والدعاء وأمثالها.

الثانيـة: العبـادة السـلبية التـي يتضـرع فيهـا المصـاب ملتجئًـا إلـى خالقـه الرحيــم مســتجيرًا بــه متوســلًا إليــه، منطلقًــا مــن أحاسيســه، التــي تُشــعره

(1) تمت طباعة هذه اللمعات في كتيب صغير بعنوان (رسالة إلى كل مريض ومبتلى)، وقد تمت إضافة ما يتعلق بالمرض والبلاء من رسائل النور للمؤلف، وهي رسالة صغيرة وقيمة، طبعتها دار سوزلر للنشر - مصر

بعجـزه وضعفـه أمـام تلـك الأمـراض والمصائـب. فينـال بذلـك التضـرع عبـادةً معنويـة خالصـة متجـردة مـن كل أنـواع الريـاء.

الدواء الثاني: المرض مرشد ناصح:

أيهـا المريـض الـذي لا يطيـق، إن الإنسـان لـم يـأتِ إلـى هـذه الدنيـا لقضـاء عيش ناعـم جميـل مغمـور بنسـمات الراحـة والصفـاء، بـل جـاء إلى هنـا؛ ليغنـم سـعادة حياةٍ أبديـة دائمـة بمـا يُسّـر لـه مـن سـبل التجـارة برأس مالـه العظيـم الذي هـو العمـر. فإذا انعـدم المـرضُ، وقع الإنسـان في الغفلـة نتيجة الصحـة والعافية، وبدت الدنيـا في عينيه حلـوة خضـرة لذيـذة، فيصيبـه عندئـذ مـرضُ نسـيان الآخـرة، فيرغـب عـن ذكـر المـوت والقبـر، ويهـدر رأس مـال عمـره الثميـن هبـاءً منثورًا.

فـي حيـن أن المـرض سـرعان ما يوقظـه مفتحًا عينيـه، قائلًا له: (أنت لسـت خالـدًا ولسـت سـائبًا، بـل أنـت مسـخر؛ لوظيفـة، دع عنك الغـرور، اذكـر خالقك.. واعلـم بأنـك مـاض إلـى القبـر، وهيـىء نفسـك وجهّزهـا). المـرض إذًا يقـوم بدور مرشـد ناصـح أميـن موقـظ، فلا داعي بعـدُ إلى الشـكوى منه، بل يجـب التفيّؤ في ظـلال الشـكر –من هـذه الناحيـة - وإذا مـا اشـتدت وطأتـه كثيـرًا فعليـك بطلب الصبـر منـه - تعالى -.

الدواء الثالث: المرض يعرفك بأسماء الله الحسنى:

أيهــا المريــض الشــاكي، اعلــم أنــه ليــس لــك حــق فــي الشــكوى، بــل عليــك الشــكر، عليــك الصبــر؛ لأن وجــودك وأعضــاؤك وأجهزتــك ليســت بملــكك أنــت، فأنــت لــم تصنعهــا بنفســك، ومالــك تلــك الأشــياء

يتصـرف فـي ملكـه كيـف يشـاء. فهـو- سـبحانه - ألبسـك أيهـا المريـض قميـص الجسـد، وأودع فيـه الحـواس النورانيـة المرصعـة كالعيـن والأذن والعقـل، فلأجـل إظهـار نقـوش أسـمائه الحسـنى، يبدّلـك ضمـن حـالات متنوعـة، ويضعـك فـي أوضـاع مختلفـة، فكمـا أنـك تتعـرف علـى اسـمه (الـرزاق) بتجرعـك مـرارة الجـوع، تتعـرف علـى اسـمه (الشـافي) بمرضـك.

ونظـرًا لظهـور قسـم مـن أحـكام أسـمائه الحسـنى بـالآلام، وانكشـافه بالمصائـب، ففيهـا لمعـات الحكمة وشـعاعات الرحمة وأنوار الجمال، فـإذا ما رُفع الحجـاب فسـتجد فيمـا وراء مرضـك الـذي تسـتوحش منـه وتنفـر، معانـي عميقة جميلـة محببـة ترتـاح إليهـا، تلـك التـي كانـت تنـزوي خلـف حجـاب المـرض.

الدواء الرابع: كل حال يزول، فكر في الثواب:

أيهـا المريـض الشـاكي مـن الألـم، أسـألك أن تعيـد فـي نفسـك مـا مضـى مـن عمـرك، وأن تتذكـر الأيـام الهانئـة اللذيـذة السـابقة مـن ذلك العمـر والأوقات العصيبـة والأليمـة التـي فيـه.

فانظـر كيـف أن الآلام والنوائـب التـي عانيـت منهـا سـابقًا عندمـا خَطَـرتْ بذهنـك غمرتـك بلـذة معنويـة، حتـى هـاج قلبـك ب (الحمـد للـه والشـكر لـه)؛ ذلـك لأن زوال الألـم يولّـد لـذة وشـعورًا بالفـرح. ولأن تلـك الآلام والمصائـب قـد غَرسـت بزوالهـا لـذةً كامنـة فـي الـروح سـالت

بتخطرها على البال، وخروجها من مكمنها حلاوةً وسرورًا، وتقطرت حمدًا وشكرًا.

الدواء الخامس: المرض يذكرك بعدم الإخلاد إلى الدنيا:

أيها الأخ المضطرب من المرض بتذكر أذواق الدنيا ولذائذها، لو كانت هذه الدنيا دائمة فعلًا، ولو انزاح الموت عن طريقنا فعلًا، ولو انقطعت أعاصير الفراق والزوال عن الهبوب بعد الآن، لانخرطتُ في صفك، ولرثيتك باكيًا لحالك. ولكن مادامت الدنيا ستخرجنا منها قائلة: (هيا اخرجوا..!) صامَّة آذانها عن صراخنا واستنجادنا. فعلينا نحن قبل أن تطردنا هي نابذة لنا، أن نهجر عشقها والإخلاد إليها من الآن، بإيقاظات الأمراض والسعي لأجل التخلي عن الدنيا قلبًا ووجدانًا قبل أن تتخلى هي عنّا.

الدواء السادس: المرض يذيقك لذة النعمة:

أيها المريض الفاقد لنعمة الصحة، إن مرضك لا يذهب بلذة النعمة الإلهية في الصحة بل على العكس، إنه يذيقك إيّاها ويطيّبها ويزيدها لذة، ذلك أن شيئًا ما إذا دام واستمر على حاله يفقد طعمه وتأثيره، حتى اتفق أهل الحق على القول: (إنما الأشياء تُعرف بأضدادها..)، فمثلًا: لولا الجوع لما أعطى الأكل لذته وطعمه، ولولا العلّة لكانت العافية بلا ذوق، ولولا المرض لباتت الصحة عديمة اللذة.. وأسألك: لو لم يكن هذا المرض الذي أصاب رأسك أو يدك أو معدتك.. هل كان بمقدورك أن

تتحسس اللذة الكامنة في الصحة التي كانت باسطة ظلالها على رأسك أو يدك أو معدتك؟ وهل كنت تتمكن أن تتذوق وتشكر النعمة الإلهية التي جسّدتها تلك النعمة؟، بل كان الغالب عليك النسيان بدلًا من الشكر، أو لكنت تصرف تلك الصحة بطغيان الغفلة إلى سفاهة دون شعور)

الدواء السابع: المرض يكفّر الذنوب:

أيها المريض الذاكر لآخرته، إن مرضك كمفعول الصابون، يطهّر أدرانك، ويمسح عنك ذنوبك، وينقيك من خطاياك. فقد ثبت أن الأمراض كفّارات للذنوب والمعاصي. والذنوب هي أمراض دائمة في الحياة الأبدية، وهي في هذه الحياة الدنيا أمراضٌ معنوية في القلب والوجدان والروح. فإذا كنت صابرًا لا تشكو، نجوت بنفسك إذًا بهذا المرض العابر من أمراض دائمة كثيرة جدًّا، وإذا كنت لاهيًا عن ذنوبك، ناسيًا آخرتك غافلًا عن ربك، فإني أؤكد معاناتك من داءٍ خطير، هو أخطر وأفتك وأكبر بمليون مرة من هذه الأمراض المؤقتة، مما يحتم عليك قبل كل شيء أن تبحث عن العلاج التام والشفاء، وما أظنك تجده إلَّا في علاج الإيمان وبلسمه الشافي، واعلم أن أقصر طريق لبلوغ ذلك العلاج هو الإطلال من نافذتي (العجز والفقر) اللتين تتفتحان بتمزيق المرض المادي لحجاب الغفلة، واللتين جُبلَ الإنسان عليهما، وبالتالي تبلغ معرفة قدرة القادر ذي الجلال ورحمته الواسعة.

الدواء الثامن: تأسَّ بأهل البلاء:

أيها المريض المتأوه بالأنين، لا تتأوه أبدًا، ولا تئن ناظرًا إلى صورة المرض القبيحة المذمومة، بل انظر إلى معناه وفحواه، وانبسط قائلًا: الحمد لله.

فلو لم يكن معنى المرض شيئًا جميلًا لما كان الخالق الرحيم يبتلي أحبّ أحبائه من عباده بالأمراض والأسقام، فقد جاء في الحديث الشريف: (أشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل)[1]، ويقف في مقدمة المبتلين النبي الصابر أيوب - عليه السلام -، ثم الأنبياء الباقون - عليهم السلام -، ثم الأولياء ثم الصالحون. وقد تلقوا جميعًا تلك الأمراض التي قاسوها عبادة خالصة وهدية رحمانية، فأدوا الشكر من خلال الصبر، وكانوا يرونها نوعًا من العمليات الجراحية تمنح لهم من لدن الرحمن الرحيم.

فأنت أيها المريض المتأوه المتألم، إن كنت تروم الالتحاق بهذه القافلة النورانية، فأد الشكر في ثنايا الصبر، وإلَّا فإن شكواك ستجعلهم يحجمون عن ضمّك إلى قافلتهم، وستهوي بنفسك في هوة الغافلين، وستسلك دربًا تخيم عليه الظلمات.

(1) رواه الطبراني في الكبير، (صحيح الجامع الصغير رقم 1005)

أهم المراجع

1 - في ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق مصر.

2 - التفسير القرآني للقرآن - د. عبد الكريم الخطيب– دار الفكر العربي مصر .

3 - تفسير القرآن العظيم لابن كثير– تحقيق سامي بن محمد السلامة– دار طيبة الرياض.

4 - لطائف الإشارات - الإمام القشيري– تحقيق د. إبراهيم بسيوني– دار الكاتب العربي للنشر.

5 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - الشيخ السعدي (ضمن مجموعة المؤلفات الكاملة للشيخ – مركز صالح بن صالح الثقافي بعنيزة.

6 - تفسير المنار - الشيخ محمد رشيد رضا - دار المنار القاهرة.

7 - تفسير الشعراوي– دار أخبار اليوم مصر.

8 - التيسير في أحاديث التفسير– الشيخ محمد المكي الناصري– دار الغرب الإسلامي بيروت.

9 - الحكم العطائية شرح وتحليل– د. محمد سعيد البوطي– دار الفكر، بيروت.

10 - الإنسان وعدالة الله في الأرض - د. محمد البوطي- نسخة للشاملة.

11 - الإيمان والحياة - د. يوسف القرضاوي- مكتبة وهبة مصر.

12 - منهج الفن الإسلامي - محمد قطب - دار الشروق مصر.

13 - تقريب طريق الهجرتين وباب السعادتين للإمام ابن القيم- إعداد الشيخ صالح الشامي- المكتب الإسلامي، بيروت.

14 - شفاء العليل في مسائل القدر والحكم والتعليل للإمام ابن القيم - دار التراث القاهرة.

15 - فوائد الفوائد الإمام ابن القيم- إعداد الشيخ علي الحلبي- دار ابن الجوزي الرياض.

16 - الجانب العاطفي من الإسلام- الشيخ محمد الغزالي- نهضة مصر.

17 - خلق المسلم - الشيخ محمد الغزالي- نهضة مصر.

18 - عقيدة المسلم- الشيخ محمد الغزالي- نهضة مصر.

19 - جدد حياتك- الشيخ محمد الغزالي- نهضة مصر.

20 - الجنة حين أتمنى- د. محمد الصوياني- مكتبة العبيكان الرياض

21 - أعذب الخواطر مختصر صيد الخاطر للامام ابن الجوزي - محمد بن صالح فرحان - دار ابن الجوزي، الدمام.

22 - الإنسـان بيـن السـراء والضـراء - د. محمـد السـيد يوسـف– دار السـلام مصر .

23 - لمسـات قدريـة فـي سـورة يوسـف– د. مأمـون جـرار - دار المأمـون، الأردن.

24 - لأنـك اللـه.. رحلـة إلـى السـماء السـبعة - علـي الفيفـي– دار الحضارة، الرياض.

25 - أسـماء اللـه الحسـنى آثارهـا وأسـرارها– د. محمـد بكر إسـماعيل - دار المنار

26 - صفقات رابحة– د. خالد أبو شادي - دار البشير، طنطا.

27 - ينابيع الرجاء - د. خالد أبو شادي - دار طيبة، حلوان.

28 - المقامـات الإيمانيـة تهذيـب الرسـالة القشـيرية– محمـد بـن صالـح فرحـان– دار الأندلـس الخضـراء، جـدة.

29 - مقـام الرضـا عنـد صوفيـة القرنيـن الثالـث والرابـع الهجرييـن– محمـد مختـار مصلـح– دار السـلام مصـر.

30 - تعريـف عـام بديـن الإسـلام– الشـيخ علـي الطنطـاوي - دار البشـير، طنطا .

31 - نظـرات فـي كتـاب اللـه– للإمـام حسـن البنـا– جمـع وتحقيـق الشـيخ عصـام تليمـة - دار التوزيـع والنشـر الإسـلامية.

32 - القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث- د. صلاح الخالدي- دار القلم، دمشق.

33 - مشكلة الشر ووجود الله- د. سامي عامري- مركز تكوين، السعودية.

صدر للمؤلف

1 - متاع الغرور:

كتاب يحدثك عن حقيقة الحياة الدنيا في ميزان الله - عز وجل - ويحذرك من العواقب الوخيمة المترتبة على الانشغال بشهواتها والركون إليها، والاغترار بزينتها ويبين لك قيمة الزهد فيها واتخاذها قنطرة؛ للنجاة في الآخرة.

2 - رمضان.. واهًا لريح الجنة:

كُتيب يجول بك في رحاب رمضان.. يبين فضله وأنواره، ويكشف روحانياته وأسراره، ويحفز لاغتنام أوقاته، ويدعوك إلى تنسم نفحات الجنان عبر هذا الشهر المبارك، رافعًا شعار الصحابي الجليل أنس بن النضر - رضي الله عنه - الذي هتف به في غزوة أحد (واهًا لريح الجنة).

3 - قلب موصول بالله:

أصبح القلب الرباني عملة نادرة بين أناس تشكو من ظمأ الأرواح، وجفاف القلوب، وأسر الشهوات، وطول الغفلات، وقيود الماديات.. لذا جاء هذا الكتاب؛ ليحرر القلب من أغلاله وقيوده، ويطهره من دنسه وعيوبه؛ ليحلق بعدها في آفاق سامقة. وفيه تقرأ عشرين صفة للقلب الموصول بالله.

4 - وربك فكبر (آية الكرسي.. سياحة في رحاب الكمال والجلال):

كتاب يدعوك إلى سياحة في رحاب أعظم آية في كتاب الله؛ ليقودك بعد التدبر والتفكر فيها إلى معرفة الله عزوجل بجلاله وعظمته وكبريائه وسلطانه، ومن ثم الخُضوع، والاستسلام، والانقياد التام والمطلق له.

5 - هكذا علمني رمضان:

شهر رمضان مدرسة تربوية وواحة روحية يتلقى المسلمون فيها جرعات تعليمية نافعة ودروسًا إيمانية جامعة تفي بحاجات النفس، وتلبي متطلباتها النفسية.

وقد جمعت في هذا الكتاب عشرين خصلة تعلمتها في رمضان.

6 - جنة الحياة:

كتاب يخبرك بوجود جنة أرضية في هذه الحياة وسط متاعب الحياة وشدائدها وآلامها.. جنة غراسها الإيمان بالله الذي يرتكز على معرفة راسخة بالله - تعالى -، ومتى خالط هذا الإيمان القلب وترسخت جذوره، أعطى ثماره كلّ حين بإذن ربّه، فيفيض على الأرواح بالأنس، ويسكب الطمأنينة في القلب، فتستعلي النفس على المشقات والمنغصات، وتتذوق أحلى ما في هذه الحياة.

تحت الإعداد:

1 - الآن وجدت قلبي

2 - قبسات من أنوار جزء عم

فهرس الكتاب

عَلَّمَتْنِي المِحَن

د. هاني درغام

لا يمكن للمرء أن يواجه المحن والشدائد في هذه الحياة بعزم وثبات ما لم يبصر الجانب الإيجابي فيها، فيرى المنن في ثنايا المحن، والأمل في جوف الألم، والعطاء في باطن المنع.

وهل هناك عطاء أعظم من استرداد المرء هوية عبوديته، وانطراحه على عتبة الافتقار، وتقوية مناعته الإيمانية، والاعتصام بحصن الصبر والتوكل، وتذوق حلاوة الرضا والاستسلام، وغرس شجرة الأمل والتفاؤل، والفرار من هجير الذنوب إلى واحة التوبة ؟

يا له من عطاء نغفل عنه عندما ندفن أنفسنا في بئر المحنة، نجتر آلامنا، ونجدد أحزاننا، ونبكي على ما فاتنا، ونستسلم لوساوس شيطاننا يغرينا بالجزع والسخط واليأس والقنوط !

لقد علمتني المحن السابقة أن أقلب في دفتر حياتي بحثاً عن صور من العطاء الرباني واللطف الإلهي تمدني بزاد عظيم يعينني على خوض معركة الحياة بيقين واطمئنان.

تصميم الغلاف: كريم سيد



